الجاحظ مفكراً معاصراً

د. داود سلوم

قد يسمو الكاتب فوق الزمان والمكان ... فيكون كالنجم الخالد الذي يمكن ان نلاحظه في ازمان مختلفة وفي اماكن متباعدة ،ويبقى دوره هو هو يبهر الناظر اليه .. ويشد المتطلع اليه (واريد ان اختار دراسة كتاب واحد للجاحظ من اواخر كتبه التي صدرت محققة والكتاب هو كتاب (العثمانية) الذي حققه عبد السلام هرون وطبعه في القاهرة عام ١٩٥٥ .

وساضع موضوع الكتاب وما ناقشه جانبا، وساحاول استخراج منهج المؤلف في النقض والابرام الخبر التاريخي ، وساحاول كذلك استخراج نظرات معاصرة في موضوعات مختلفة في هذا الكتاب مثل دراسة قدرات الاطفال ، وتعليل الشجاعة واسبابها، وقوة الدعاية النفسية في الحرب ، وسوف يلاحظ القارىء حتما كثيرا من الشبه بين ما نفكر فيه اليوم والطريقة التي نعلل بها بين منهج الجاحظ في التفكير والتعليل . . .

١ ـ التاليف والرواية والبحث

١ ـ شروط الكتاب الجيد وشرط المؤلف :

يدعو الجاحظ الكاتب عند التأليف ان يكون علميا محايدا ينقل وجهات النظر المختلفة دون تمييز ودون عصبية وان يؤدي للقارىء حقه في الاطلاع على وجهات النظر المختلفة ، قال :

«واعلم ان واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلا ولاهل النظر مألفا حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه حتى لو لم يقرأ القارىء من كتابه الا مقالة خصمه لخيل له انه الذي اجتباه لنفسه(١)» .

ويرى الجاحظ ان الكتب في الموضوعات التي تعالج الحقائق العلمية والنقاش انما تضع الكليات امام القارىء ولا تنحو نحو الاستقصاء وهو يتكلم هنا عن الدراسات التاريخية بشكل خاص . قال :

وانما ملاك وضع الكتاب : احكام اصله والا يشذ عنه شيء من اركانه فاما استقصاؤه حتى لا يجري بين الخصمين منه شيء قد وضع بعينه فهذا ما لا يمكن الواضع ولا يحتمل الكتاب ولو امكن الواضع واحتمله لكان طوله قاطعا لنشاط القارىء ومجلبة لنعاس المستمع الا لمن صحت ارادته وافرطت شهوته وقوى طبعه وحسن احتسابه وقد اعيتنا هذه الصفة في المعلمين فكيف في المتعلمين(٢)» .

وكان الجاحظ يؤمن بالتخصص ويؤمن بالمؤلف المثقف المتخصص الذي اطلع على موضوعه ويعرف ما يقول فيه ، واما اراء اشباه المثقفين التي تعتمد على اطراف من المعرفة ونبذ من القول فهو مما لا يعتد به في البحث العلمي الاصيل :

«ولو برز عالم على جادة منهج وقارعة طريق فنازع في النحو واحتج في العروض وخاض في الفتيا وذكر النجوم والحساب والطب والهندسة وابواب الصناعات لم يعرض له ولم يفاتحه الا اهل هذه الطبقات ... والعامة ... لم يبلغ من قوة عقولها وكثرة خواطرها ان ترتفع الى معرفة العلماء ولم تبلغ

من ضعف عقولها ان تنحط الى طبقة المجانين والاطفال(٣)» .

ب ـ كيف نجمع المادة التاريخية الموثقة :

اعتمد الجاحظ في جمع مادته على مصادر مختلفة وطرق متعددة ودعا المؤلف الى اتباع الطرق العلمية كافة للوصول الى جمع المادة التاريخية الموثقة . فهو قد استفاد من النصوص الادبية والاشعار في الاستنتاج التاريخي كما اعتمد على الخبر التاريخي المحض . قال :

«وليس بين الاشعار وبين الاخبار فرق اذا امتنع في مجيئها واصل مخرجها : (التباعد) و (الاتفاق) و (التواطؤ)(٤)»

وان جمع الحقائق من اماكن مختلفة قد يكون اداة للتوضيح والتصوير الصادق والكشف العلمي :

«فان قلتم ليس بحجة قلنا : قد صدقتم لو كان ليس بحجة الا قولها فقط . ولكن الامور اذا جاءت من هاهنا وهاهنا كان اجتماعها دليلا(٥)»

وهو اول دعاة اخذ المعدل الوسط في القضايا التاريخية التي تعتمد على الارقام والعدد والسنين التي يقع فيها خلاف كثير في سبيل الوصول الى الرواية الموثقة . وان احتمال تعمد الكذب فيها اقل من الخبر المروى وانها لا مجال فيها للعصبية ويعلل ذلك :

«وهذه التاريخات والاعمار مألوفة لا يستطيع احد جهلها والخلاف عليها لان الذين نقلوا التاريخ لم يعتمدوا تفضيل بعض على بعض وليس يمكن ذلك مع اختلاف عللهم واسبابهم(٦)»

وطريقته في التعامل مع الارقام في الرواية التاريخية كما يلي :

«القياس ان يؤخذ باوسط الروايتين ... فتاخذ اوسطها وهو اعدلها وتطرح قول المقصر والغالي ثم تطرح ما حصل في يديك ما روى عن عمره وسنه(٧) ...»

واوثق الاخبار التاريخية لديه هو الخبر المستفيض الشائع وهذا ما لا يجب ان يرفضه المؤرخ معتمدا على الخبر الشاذ :

«لان من يجحد المستفيض الشائع بالاسانيد المختلفة في الدهر المتفاوت ويوجب على خصمه له تصديق الشاذ الذي لا يعرف ولا يدعيه الا اهل الغلو ... ممتنع الجانب ، عسير المطلب لا يطاق ولا يجارى(٨)»

وهذا وحده لا يكفي في المحقق والمؤرخ في سبيل الوصول الى المنهج الصائب والخبر العلمي ، ما لم يكن المؤلف نفسه على النقد التاريخي ومعرفة السبيل الى التحقيق والشك العلمي :

«واول مراتب العالم ان يعرف المعارضة والمقابلة والمنقوص والمتساوى(٩)»

جـ ـ الرواية ومشاكلها :

ان كثيرا من معارف العرب التاريخية والادبية والدينية اعتمدت على الاخبار والسير والاحاديث ولذلك كان على الجاحظ ان يرسم الطريقة المثلى للحصول على الرواية العلمية الموثقة ، التي يتم فيها (الاجماع) ويمتنع فيها (العمد) و (الاتفاق) والتواطؤ . قال :

«وان كان هذا شيئا تقوله منقول او جاء من وجه ضعيف فهو مع ضعفه (شاذ) وليس في ذلك لكم حجة لان الحديث قد يتحمله الرجل الواحد الثقة عن مثله فيكون شاذا ما لم يكن مستفيضا شائعا قد نقل عن المستفيض الشائع وقد يكون الحديث يحتمله الرجلان وهم ضعفاء عدد اهل الاثر فيكون الحديث ضعيفا لضعف ناقله ولا يسمونه شاذا اذا كان قد جاء من ثلاثة اوجه وانما الحجة في المجيء الذي يمتنع فيه (العمد) و (الاتفاق) وهذا الجنس من الخبر هو (الاجماع) .

وليس يكون الخبر اجماعا من قبل كثرة عدد الناقلين ولا من قبل عدالة المحدثين وانما هو العدد الذي نعلم انهم لم يتلاقوا ولم يتراسلوا ولا تتفق السنتهم على خبر موضوع مع اختلاف عللهم واسبابهم ، ثم يكون معلوما عند سامع ذلك الخبر مع ذلك العدد انهم قد نقلوه عن مثلهم في مثل اسبابهم وعللهم ، فاذا كان معلوما ان فرعه كاصله كان موجبا لليقين ونافيا لعرو الشك واسترابة التقليد(١٠)»

والجاحظ لا يجوّز رفض رواية من روايتين

عقليا وقال :

«ان الاخبار لابد فيها من (التصادق) اذا تساوت الروايتان في قوتهما فاما ان تقبلا معا او ترفضا معا او يعطى الدليل المادي على وجود تخريج آخر لاحدى الروايتين ووضع مبدأ (التصادق) في الروايات المسموعة ومبدأ (التعارف) على المقبول كما لابد في درك العقول من (التعارف) فان عدم التعارف في صحيح العقول والتصادق في صحيح السمع عدم الانصاف وبطلان الكلام وليس لكم ان ترفضوا خبرا له ضرب من الاسناد وتوجبون تصديق مثله لان كل واحد من الخصمين لايعجزه دفع المستفيض بلسانه فضلا عن دفع الشاذ وان كان ناقله عدلا في ظاهره فاذا كان ناقله ذلك كذلك فاولى الامور بكم وبهم الصدق وليس كل من اراد الصدق في مثل هذا قدر عليه الا بالتقدم في كثرة السماع واتساع الرواية

وليس لاحد وان حسن عقله وصح فكره ان يقول فيما لا يضاف علمه الا من طريق الخبر حتى يكون صاحب خبر وطالب اثر فاذا صح عقله وكثر سماعه خفت مؤونته على نفسه وعلى خصمه(١١)»

واذا صحت روايتان تاريخيتان متناقضتان من مصدر واحد فما هو موقف الجاحظ وموقفنا منهما ؟

لقد اعتقد الجاحظ ان الحقيقة لا تتناقض ووضع مبدأ (الحق لا يتناقض) ولكن قد يكون الخبر موضوعا او يكون نقله ناقصا او مضطربا ، وطبق هذا المبدأ على الاحاديث النبوية والاخبار الدينية . قال :

«(الحق لا يتناقض) ... الا ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد قال احد القولين وصحت به الشهادة ولم يقل الاخر وانما ولدته الرجال وصنعته حملة السير ولا سبيل لنا الى معرفة ذلك اذا كان الاسناد متساويا وعند الرجال متقاربا وليس في هذه الاحاديث كلها حديث يضطر خصمه الى معرفة صحته . او يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد تكلم بكثير من هاتين الروايتين وكان معناه وقصده فيها معروفا عند من كان بحضرته حتى كان الجميع يعرفون خاصه من عامه ولكن الناقلين احتملوها عن السلف مجردة بغير تأويل معانيها فادوها على اللفظ العام فصار السامع يتناقض عنده اذا قابل معانيها بعضها ببعض لجهله باصول مخارجها وكيف كان موقعها والذي فسرت لك مثل تعرف به سمت الحجة وقصد السبيل(١٢)»

ورفض الجاحظ الاستنتاج دون توفر الرواية او المشاهدة ووضع مبدأ (الاستخراج لا يكون الا عن عيان او خبر) ولفظة (الاستخراج) هي ما نسميه نحن بالاستنتاج . قال :

« أرايتم هذا الذي قلتموه وادعيتموه الشيء (استخرجتموه) او سمعتموه ؟ فان زعموا انهم قد سمعوا قلنا لهم : فاتوا بفقيه واحد او محدث يقول كما تقولون ويحدث كما تزعمون وجميع ما يدعى باطل !

وان كان ... ولا يجوز ان يقولوا : (استخرجنا) معرفة هذا المعنى ، لان (الاستخراج) لا يكون الا عن عيان او خبر(١٣)»

وفي سبيل الاستنتاج العلمي الصحيح فقد جوّز استفتاء كتب اصحاب الاختصاص وكتب ابناء الاديان الاخرى الذين لا تتحقق لهم منفعة في التواطؤ حول الخبر الذي هو موضوع المناقشة . قال :

فان شئتم فاعترضوا اصحاب التفسير والسيرة والتمسوا على ذلك من قبل اصحاب ابن عباس ، وان شئتم فاهل الكتاب يهودهم ونصاراهم الذين ليس لهم في ذلك دفع مضرة ولا اجتلاب منفعة ولو آثروا ذلك ان يجحدوا ما عرفوا وان يطبقوا على انكسار ما علموا . . . .(١٤) »

د ــ نماذج تطبيقية في تجريح وتعديل الخبر التاريخي :

جاء في الاخبار ان سلمان الفارسي قال عند بيعة السقيفة (كرداذ ونكرداذ) ويشرحها الجاحظ : «وان كانت هذه الكلمة حقا كانت ترجمتها بالعربية صنعتم ولم تصنعوا(١٥) » ثم يرفض الجاحظ هذه الرواية ويعطي عددا من الادلة التاريخية التالية :

١ ــ لو كان سلمان قد قال ذلك لكان من اهل الطعن والمخالفة فكيف يكون مع هذا واليا

للنظام الذي عارضه . قال الجاحظ : «فكيف يحتمل لسلمان الطعن والخلاف ثم لا يرضى له الا بالولاية على بلاد كسرى(١٦)»

٢ ـ انعدام السند التاريخي الموثق لهذا الخبر . وقال : «ومع انك لو طفت في الافاق تطلب لكرداذ ونكرداذ اسنادا » لما وجدته . «ولكنا قد روينا ان سلمان قال : اصبتم الحق واخطأتم المعدن(١٧)»

ويعلل الجاحظ ان هذا القول قد صدر عن سلمان تأثرا بنظام الحكم الذي كان موجودا في بلاده التي نشأ فيها ولم يفهم الفرق بين البيئة العربية والبيئة الاجنبية . قال الجاحظ : «وسلمان رجل فارسي ، وهذا كان شاهد كسرى فتوهم ان حكم الكتاب والسنة كحكم تدبير السر والقائمين بالملك فانما تكلم على عادته وتربيته(١٨)»

٣ ـ النص فارسي والمخاطب عربي : ويضيف الجاحظ نقطة اخرى تضعف الخبر : . . . » وان كان سلمان على ما قد وصفتم وبالمكان الذي وصفتم من الحكمة والبيان فما دعاه الى ان يكلم العرب والاعراب بالفارسية وهو عربي اللسان فصيح الكلام وهو يعلم انه لم يكن بحضرة المدينة فرس ولا من يتكلم بالفارسية ولا من يفهمها وهو انما اراد الاحتجاج عليهم والاعذار اليهم(١٩) »

ثم يضيف الجاحظ ممعنا في اضعاف الرواية:

«وكيف فهمت معناه العرب وهي لا تعرف من الفارسية قليلا ولا كثيرا ؟ ولم يكن للنبي (ص) ترجمان يعبر عنه للفرس فيكون ذلك الترجمان كان حاضرا لكلامه فيفسر للناس معناه وكيف نقلت عنه الصحابة الى التابعين وكل من كان بحضرة القوم . . . لا يفهمون الفارسية ؟(٢٠)»

وهو يعتبر الرواية الموثقة هي الرواية التي تم الاتفاق عليها على اختلاف الزمن وتفاوت المدة وانتفاء المصلحة والفرض والمعرفة .

فلا يكون الخبر التاريخي «مولدا محدثا واكثر من تكلم به ليسوا بذوى نحلة فيقتدروا له ولا بذوى معرفة فيعرفوا فضله ولا ذوى قرابة فيطلبوا السبق به مع الذي نجده في الاشعار الصحيحة القديمة وليس في الاشعار والاخبار فرق اذا جاءت مجيء الحجج . وانما ذكرنا الاشعار مع الاخبار ليعرفوا ظهور امره ووجوه دلائله وقهر اسبابه وليكون آنس للنفوس واقطع لشغب الخصم ولجحد المنازع . . . وقال العجاج بن رؤبة وهو اعرابي ليس بذى نحلة ولا صاحب خصومة وقد ادرك الجاهلية . . . (و) هؤلاء الذين ذكرنا : شريح ابن هاني والعجاج بن رؤبة والحارث بن هشام بن المفيرة وطريف بن عدى ابن حاتم وحسان بن ثابت وطليحة الاسدي ومن اشبههم ليسوا باصحاب خصومات ولا نظر في الفاضل والمفضول . . (٢١)»

٢ ـ دراسة القدرات النفسية للاحداث بين السنة السابعة والتاسعة

يفترض الجاحظ ان الاطفال كافة من ذوي الاسنان المتقاربة عدا الطفل صاحب القدرة الخاصة يكونون على المستوى النفسي نفسه وعلى الدرجة نفسها من القدرة والقابلية وهو حكم علمي سليم . قال :

«اننا نتكلم على ظاهر الاحكام . وما شاهدنا عليه طباع الاطفال وجدنا حكم ابن سبع سنين وثماني سنين وتسع سنين حيث قرانا وبلغنا خبره ـ ما لم يعلم مغيب امره وخاصة طباعه ـ حكم الاطفال وليس لنا ان نزيل ظاهر حكمه والذي نعرف من شكله بلعل وعسى . . . غير ان الحكم فيه عنده على مجرى امثاله واشكاله(٢٢)»

وشرح الجاحظ القدرات النفسية للاطفال في هذه السن بشكل عام ، ويرى انهم اميل الى الحفظ والترداد منهم الى التحليل والتعليل والاثبات والنقض . قال :

«ولعمري انا لنجد في الصبيان من لو لقنته وسددته او كتبت له اغمض المعاني والطفها واغوص الحجج وابعدها واكثرها لفظا والطفها طولا ثم اخذته بدرسه وحفظه لحفظه حفظاً عجيباً ولهذه هذا ذليقاً .

فأما معرفته صحيحه من سقيمه وحقه من باطله وفصل ما بين المقرب والدليل

والاحتراس من حيث يؤتى المخدعون والتحفظ من مكر الخادعين وتأتي المجرب ورفق الساحر وخلابة المتنبيء وزجر الكاهن واخبار المنجمين وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه، فليس يعرف النظر واختلاف البحث الا من عرف القصيد من (الرجز)(*) والمخمس من الاسجاع والمزاوج من المنثور والخطب من الرسائل وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات ... وهذا ما لا يوجد عند صبي ابن سبع وثمان سنين وتسع سنين ابدا(٢٣)»

ويميز الجاحظ بين ما يسهل تعلمه على الصبي الحدث في هذه السن وبين ما لا يمكن ان يتعلمه لو توف السن مانعا وعدم النضوج سدا بينه وبين ما يريد . قال :

«وقد نجد الصبي الذكي يعرف من العروض وجها ومن النحو صدرا ومن الفرائض ابوابا ومن الغناء اصواتا فأما العلم باصول الاديان ومخارج الملل وتأويل الدين والتحفظ من البدع وقبل ذلك الكلام في حجج العقول والتعديل والتجوير والعلم بالاخبار وتقدير الاشكال فليس هذا موجودا الا عند العلماء(٢٤)»

والصبي والناشيء اقدر على الاخذ بالافكار دون التعرض للاضطراب النفسي الذي يمكن ان يتعرض له الكبار عند استبدالهم افكارهم بافكار اخرى . قال :

«وصاحب التربية يبلغ حين يبلغ وقد اسقط الله عنه مؤونة الروية والخطار بالجهالة وقد اورثه الالف والسكون وكفاه اختلاج الشك واضطراب النفس وجولان القلب(٢٥)»

١ ـ التعليل العلمي والنفسي للبطولة

لا شك ان لحياة الجاحظ الحضرية التي ابتعدت عن الغزو والحروب اثرا في هذا التحليل والرصد لسلوك البداوة ومثلها العليا ، ووضع الشجاعة فوق كثير من الاعتبارات في السلوك الاجتماعي ، فشخصية عنترة قد شغلت العرب كثيرا وشجاعة ابطال الحروب تركت وراءها كثيرا من الفخر سطره الابطال انفسهم او سطرته قبائلهم، ولا زلنا في عصرنا ننظر الى شخصية الشجاع والبطل نظرة فيها شيء من التقديس ، ولكن الجاحظ في تعليله وتحليله يحاول ان يبتعد عن اي تأثر ، وان يضع الظاهرة مجردة تحت منطق العقل المجرد ليرى قيمتها وما تساويه مع بقية التجارب الانسانية .

هل الشجاعة ذاتية واصيلة في الذات ؟ هل الشجاعة صفة مسببة بعلل ثانوية اخرى ؟

قال الجاحظ :

واعلم ان المشي الى القرن بالسيف ليس هو على ما يتوهمه الغمر من الشدة والفضل وان كان شديدا فاضلا ولو كان كما يظنون وما يتوهمون ما انقادت النفس ولا استصحبت للقتال لان النفس المستطيعة المختارة التي قتالها طاعة وفرارها معصية قد عدلت كالميزان في استقامة لسانه وكفتيه ، فاذا لم يكن بحذاء سيفه الى السيف ومكروه ما يأتي به ما يعادله ويوازنه لم يمكن النفس ان تختار الاقدام على الكف ولكن معه في وقت مشيه الى القرن امور تنفحه مشجعة وان لم يبصرها الناس وقضوا على ظاهر ما ابصروا من اقدام(٢٦)» .

ويعدد الجاحظ الاسباب المختلفة الخفية التي قد تكون سببا في شجاعة الشجاع :

«والسبب المشجع ربما كان (الغضب) وربما كان (الشراب) وربما كان (الفرارة والحداثة) وربما كان (الاحراج) وربما كان طباعا كطباع القاسي والرحيم والسخي والبخيل والجزوع من وقع السوط والصبور(٢٧)»

ويرى الجاحظ ان العقيدة وحدها لا تكفي ان تحيل الجبان شجاعا لان العقيدة مكتسبة . قال :

«وربما كان السبب (الدين) ولكن لا يبلغ الرجل بقوة الدين في قلبه ما لم يشيعه بعض ما ذكرناه ان يمشي الى السيف لان (الدين) مكتسب مجتلب وليس باصلي ولا طبيعي ولان

(*) وردت في كتاب العثمانية كلمة (الزجر) واكبر الظن انها الرجز فابدلناها على الترجيح والظن .

ثوابه مؤجل والخصال التي ذكرناها طبيعية اصلية وثوابها معجل(٢٨)»

ويدعو الجاحظ الى فهم الدوافع النفسية خلف السلوك الفردي قبل الحكم على شجاعة الانسان او جبنه والفصل بين الشجاعة والجبن والطاعة والمعصية ، اذ لا يقتضي ان يكون الشجاع مطيعا ولا الجبان عاصيا . قال :

«وقد يكون مع الانسان اسباب محذرة مجبنة فيكون ركونه وجلوسه طباعا لا يمتنع منه وربما كانت الاسباب من المشجعات والمجبنات سواء فيكون جلوسه عن الحرب وقتاله فيها اختيارا وربما فضلت قوى مشجعاته حتى يكون اقدامه اشرا ومرحا واهتزازا وطباعا ولا يكون ذلك طاعة وان كان في حكم طاعة وكذلك الجبن اذا افرط على صاحبه حتى يكون فراره طباعا لايكون معصية وان كان في الحكم معصية(٢٩)»

ويرى الجاحظ أن الحكم الصادق على الشخصية يجب ان يتم على اساس تقويم كل صفة في الانسان منفردة واعطاء كل فضيلة في الشخص ما تستحق بغض النظر عن الصفات السلبية الاخرى وما فيها من رذائل الى جانب الفضائل . قال :

«واذا كانت الاسباب المشجعة في وزن الاسباب المجبنة كان مطيعا ولم يكن حيث وضعه القوم لانهم توهموا مع مشيه بالسيف الى القرن احتمال المكروه كله ورفعوا عن اوهامهم الاسباب التي لولاها لم يمكنه المشي الى القرن بالسيف(٣٠)»

ويميز الجاحظ بين شخصيتين مختلفتين في السلوك الاجتماعي فهو يميز بين الشخصية القائدة اجتماعيا وبين شخصية البطل ، ويرى انه من الممكن جدا خضوع الشخصية الثانية للشخصية الاولى لعمق الشخصية الاولى مع انعدام الشجاعة فيها وكون شخصية البطل ليس لها الا بعد واحد هو بعد الشجاعة . ويشرح ذلك بقوله :

«وقد نجد الرجل يقتل الاقران والفرسان وهو لا يستطيع ان يرفع طرفه في ذلك العسكر الى رجل آخر ليس فيه من قتل الاقران قليل ولا كثير لمان عندهم اكثر من مشي ذلك المقاتل بسيفه وقتله لقرنه واذا ثبت ان رئيس العسكر واشباهه قد ثبتت لهم الرياسة واستحقوا التقديم بغير التقدم والمباشرة ثبت ان قتل الاقران ليس بدليل على الفضيلة والرياسة او ما تعلم ان مع الرئيس من الاكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيره لانه المخصوص بالمطالبة وعليه مدار الامر . . .(٣١)»

وحين يتكلم على الشجاعة وعلاقتها بالعقيدة، فهو يضع درجتين من الشجاعة ، فشجاعة صاحب العقيدة المضطهدة او المهزومة او المقاومة اعنف من شجاعة صاحب العقيدة المؤسسة او المنتصرة لان الاول تعتمد شجاعته على اليأس وشجاعة الثاني تعتمد على الامل ، والشجاع مع اليأس اقوى من الشجاع الذي يصحبه الامل ويسنده نصر الاخرين له . قال :

«ولا سواء مفتون مشرد لا حيلة عنده ومضروب معذب لا انتصار به ولا دفع عنده وباطش مقرن يشفي غيظه ويروي غليله وله مقدم يكتنفه ويشجعه ولا سواء مقهور لا يغاث . . . وقد هتك اليأس لطولما لقى حجاب قلبه ونقض قوى طمعه حتى بقي وليس معه الا احتسابه ومقاتل في عسكر معه عز الرجاء وقوة الطمع وطيب نفس الامل(٣٢)»

٤ ـ الدعاية واثرها في الحرب النفسية

ان الجاحظ من اوائل المفكرين الذين عرفوا خطر الدعاية واثرها في الحرب النفسية والتأثير على الافراد فان المجتمع الذي نشأ فيه الجاحظ كان مجتمعا تتصادم فيه الافكار والاراء والنظريات بعضها ببعض وتحول القلم فيه بحق الى ما يشبه السيف في المجتمعات البدائية حيث كان هو الحكم والفيصل في كل ما يختصمون فيه .

وان كثرة الفرق والعقائد في المجتمع الاسلامي خاصة تلك العقائد الموجهة لضرب العرب او عقيدتهم جعلت الجاحظ يحذر اشد الحذر من تلك الافكار واثرها في الجمهور وميز الجاحظ بين نقل تلك الافكار لغرض مناقشتها وبين التأثر بها والخضوع لما تدعو اليه .

فهو يعتذر عن منهجه الذي يعتمد على استعراض كل شيء في كتبه فيقول :

«ولولا اتكالي على انقطاع الباطل عن مدى الحق وان استقصيته وبلغت غايته ما استجزت حكايته وقمت مقام صاحبه(٢٣)»

ولكنه يعود ثانية الى التحذير من الفكر الاجنبي والغريب وخاصة ذلك الفكر الموجه المختار والمنمق لغرض الاستهواء فيحذر منه قارئه فيقول :

«وعلى ان للنّحل صورا كصور الناس فكما ان بعض الصور اشد مشاكله لطبعك وآنق في عينك واخف على نفسك فكذلك النحل في مقابلة الاهواء ومشاكله الشهوات والخفة على النفوس ، فأحذر حوادث الشهوات واتصال المشاكلة فانه اخفى من الدقيق وادق من الخفي هذا اذا كان المعنى مجردا والمذهب عاريا فكيف اذا موهه صاحبه وزخرفه واضعه باعذب الالفاظ واشهاها وأحسن المخارج (وأعفاها*) فشفى كل واحد منهما صاحبه وحببه الى سامعه فان وافق ذلك منه تعظيم لسلفه وهوى في قائله فقد اسمحت نفسه بالتقليد واستسلمت للاعتقاد فأحذر في هذه الصفة ولا تستخفن بهذه الوجه(٢٤)»

ويعتمد على التاريخ الاسلامي في سبيل تبيان اثر الحرب النفسية والدعاية على الجيوش والجموع البشرية . قال :

«كيف لم يقف ... في موقف يكون من عدوه بمراى ومسمع فيقول ... ولا يمتنع الناس ان يقولوا ويموجوا فاذا ما جوا تكلموا على اقدار عللهم ، وعللهم مختلفة ولا ينشب امرهم ان يعود الى فرقة فمن ذاكر قد كان ناسيا ومن نازع قد كان مصرا وكم مترنح قد كان غالطا مع ما كان يشيع من الحجة في الافاق ويستفيض في الاطراف ويحتمله الركبان ويتهادى في المجالس فهذا كان اشد ... من مائة الف سنان طرير وسيف مشهور ... ومعلوم عند ذوي التجربة والعارفين بطبائع الاتباع وعلل الاجناد ان العساكر تنتقض مرائرها وينتشر امرها وتنقلب على قادتها بايسر من هذه الحجة واخفى من هذه الشهادة ... وقد علمتم ما صنعت المصاحف في طبائع اصحاب علي جين رفعها عمرو بن العاص اشد ما كان اصحاب علي استبصارا في قتالهم ... وهذا الباب اكثر من ان يحتاج مع ظهوره ومعرفة الناس به الى ان نحشوا به كتابنا ....(٢٥)»

ويحاول الجاحظ ان ينبهنا الى ان الدعاية قد تاخذ الاحداث الشاذة والظواهر النادرة وتعتبرها مقياسا ونقطة ارتكاز في الهجوم على اية نظرية او فكرة او نظام او شخصية وعلى الانسان في رايه ان يميز بين الفساد المطلق والفساد الذي يكون ظاهرة شاذة لا مفر من وقوعها في اي مجتمع وفي كل زمان مكان . وقال :

«فليس في طعن الطاعن عن دلالة اذا كان المطعون عليه كاملا فاضلا واجماع الناس كلهم على الصواب امر لا ينال ولكن اذا كانت الأمة قد اطبقت على طاعة رجل على غير الرغبة والرهبة ثم لم يكن اغترارا ولا اغفالا فليس في شذوذ رجل ولا رجلين دلالة على انتقاض امره وفساد شانه(٢٦)»

ويرى الجاحظ ان الخليفة عمر بن الخطاب في التاريخ العربي كان من اوائل الذين استخدموا الحرب النفسية ، ففي بداية الصراع العربي الفارسي كان العرب يهابون الفرس وكان الفرس ما زالوا في عنفوان قوتهم فاظهر الخليفة استخفافه بالفرس لهذا السبب . قال الجاحظ :

«فاما ما ذكروا من تهجينه امر العجم وتعظيمه امر العرب فانما كان ذلك لانه لما ندب الناس الى قتال كسرى والاساورة تثاقلت عن ذلك العرب والاعراب وجميع المهاجرين والانصار هيبة لناحية كسرى والفرس وخفوا لغزو الروم ونشطوا له حتى انتدب ابو عبيدة الثقفي اول من انتدب فلذلك عقد له على كبار المهاجرين الاولين والانصار والبدريين فلم يكن لهم هم الا تصغير امرهم وتهجين شأنهم

* و (اعفاها) : كذا في الاصل كما اشار المحقق عبد السلام هرون في (العثمانية)

والحظ من اقدارهم ليرد ذلك من نفوس العرب .. ومن الدليل على ما وسفنا من تدبير عمر تركه الاستخفاف باقدار العجم واظهار احتقارهم والازراء بهم بعد جلولاء(٢٧)»

وبعد ان تم النصر النهائي للعرب على الفرس في هذه المعركة .

ويعلق الجاحظ على الذين لم يفهموا سياسة الخليفة في الدعاية النفسية في الحرب :

«وهكذا تدبير الخلفاء ولكن اكثر الناس لا يعلمون ولو كان اذا لم يفهموا عن الائمة لم يعترضوا عليهم ولم يخطئوهم ولم يجهلوهم كان أيسر(٢٨)»

وينفي الجاحظ العصبية القومية عن عمر ويقول عن ذلك :

«والذين نحلوا عمر العصبية رجلان : (رجل*) احب ان يمقته الى العجم والموالي ومتعرب عرف ان عمر عند الناس قدوة فنحله ذلك ليكون له حجة فاعرف ذلك(٢٩)»

وانا اكتب ذلك لاشعر ان رجلا يمر بجانبي ويزحمني بكتفه في بغداد اليوم قد يكون الجاحظ نفسه قد مر بجانبي دون ان الحظ عينيه الجاحظتين .

---

* زيادة من الكاتب وما في النص كلمة اخرى تركناها .

الهوامش :

(١) كتاب العثمانية ، لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ) . تحقيق عبدالسلام هرون ، القاهرة ١٣٧٤هـ\١٩٥٥م ، ص٢٨٠ .

(٢) ن . م . ص٢٧٩

(٣) ن . م . ص٢٥٤

(٤) ن . م . ص٤

(٥) ن . م . ص٩٥

(٦) ن . م . ص٦

(٧) ن . م . ص٥

(٨) ن . م . ص٨٢

(٩) ن . م . ص٤٤

(١٠) ن . م . ص١١٥ – ١١٦

(١١) ن . م . ص١٢٤ – ١٣٥

(١٢) ن . م . ص١٢٧ – ١٣٨

(١٣) ن . م . ص١٧٠ – ١٧١

(١٤) ن . م . ص١٥٤ – ١٥٥

(١٥) (١٦) ن . م . ص١٧٩

(١٧) (١٨) ن . م . ص١٨٦

(١٩) ن . م . ص١٨٧

(٢٠) ن . م . ص١٨٨

(٢١) ن . م . ص١٢٤ – ١٢٥ – ١٢٧

(٢٢) ن . م . ص٧

(٢٣) ن . م . ص١٥ – ١٦

(٢٤) ن . م . ص١٧

(٢٥) ن . م . ص٢٢

(٢٦) (٢٧) (٢٨) ن . م . ص٤٧

(٢٩) ن . م . ص٤٨

(٣٠) ن . م . ص٤٩

(٣١) ن . م . ص٤٦

(٣٢) ن . م . ص٤٠

(٣٣) ن . م . ص٢٨٠

(٣٤) ن . م . ص٢٧٩

(٣٥) ن . م . ص١١ – ١٢

(٣٦) ن . م . ص١٩٤ – ١٩٥

(٣٧) ن . م . ص ٢١٤

(٣٨) ن . م . ص٢١٥

(٣٩) ن . م . ص٢٢١

أبوابُ اللّـــه الواسِعة

قصة بقلم : عبدالله الشيتي

الاهـــداء : الى روح عبـــد البـاسط الصوفي . صريـع الحرف !

دخل المدينة في هداة الليل ، غريبا تائها ، لايعرف احدا ، ولا يعرفه احد .

وكان أهل الحي القديم الذي جرته قدماه اليه ، يوجسون خيفة من امره ، ويشفقون ان يكون معتوها ، او مجنونا ، يشكل خطرا على حياة اطفالهم وغلمانهم . الذين كان تخوفهم منـه يتبدى في تراكضهم مـــن امامه ، كلما سار الهوينا بين البيوتات المتناثرة ، ميمما شطر المسجد البعيد ، ينام في فنائـــه على حصير ، وفي اطلاقهم صيحاتهم الصبيانية المتباينة ، التي يشتم منها محاولتهم اتقاء شر الغريب المجنون . !

وما هو بمجنون ، لكن هيأته الرثة ، واسمالـــه الباليـة المتآكلـة ، التـي تحسر عن بعض أجزاء فـي جسمه ، ونظراته الزائغة النهمة ، وبلاهته الشاردة . . كلها جميعا ادخلت في روع سكان الحي القديم ، ان هذا الغريب مجنون ، ينبغي اهماله ، وعدم التعرض له بأي سؤال !

كانوا متحفظين معه ، حذرين منه ، فهم لايعرفون من اين هو آت ، ويجهلون سبب اقامته بين ظهرانيهم حتى ان « ابو محمود » مختـار المحلة ، لم يجرؤ ان يسأله عن اسمه او هويتـه ، او يمضي في استقصاء شأنه مثلما يفعل عادة مع من يستريب بهم ، وهمس لنفسه غير مبال .

ـ : من يدري ؟ . . لعله متسول شحاذ . . !

وكان الغريب لايمضي في شروده ، ومـع تقـادم العهد عليه ، كان نفوره من نفسه ، وقرفه من الدنيـا يزدادان قسوة في الزمن .

« ولو ان احدا شاء ان يرقبـه عـن كثب ، لالفاه سادرا في الافق البعيد ، بعينـين مصلوبتي النظرات ووجه مخطوف اللون ، كأنما هو شاعر مداه ضيـــع محبوبته في مرئيات الطبيعة ، او منجم هندي يقرأ الغيب للحيارى ويستطلع المجهول .

وكـان ، رغم مـا يكتنفه مـن ضبـاب الصمت والكآبة ، يرى الناس بعين الرضا الكليلة عن كل عيب المخفية لكل سوء ، أما عين السخط التي تبدي المساوئ فقد كانت عنده عمياء لا تبصر . !

*

هتف به الحارس الليـلي ، ذات ليلـة قارسـة ، غيومها داكنة حزينة ، والناس فيها نيـــام ، وقد رآه يجوب الطرقات على غير هدى ، فامتثل الغريب للامر، وتسمر في وقفتـه . لا يبـدي حراكـا ، وظل رأسه مطرقا ، وعيناه ذليلتين نصف مغمضتين .

اقبل الحارس عليه بخطى وئيدة يسأله بصوت اجش :

ـ مـن انت . . ؟ ماذا تريـد ؟

ـ . . . .

وسحب نفسا طويلا من سيجارته ، وقد استهجن صمتـه ، وشرع يتفحصه بفضول ، من خـلال ضوء مصباحه الصغير الذي سلطه عليه واردف :

ـ نحن نراك بيننا منذ مدة ولا يعرف أحد عنـــك

شيئا .. ؟ وراح يصرف الكلمات بلهجة الحزم والامر:
ــ ما اسمك .. ماذا تفعل الساعة ..؟ اين تقطن ..؟ اعطني هويتك .!

فتح الرجل فمه لاول مرة ، وتقاطر الجواب كلمات مقتضبة تناثرت على شفتيه المرتعشتين كالحمى :
ــ انا بلا هوية .. بلا اهل .. بلا مأوى !
قال الحارس :

ــ اين تنام ؟
قال الغريب : في فناء المسجد الذي حذرني خادمه من غشيانه الليلة ، وقال لي « ابحث عن غير هذا المكان فهو للمصلين الاتقياء فقط »..!
انتفخت اوداج الحارس وانتهره بقسوة :
ــ صه .. هل هذا كلام ؟ ان امرك مريب يوحي بالشك ..اكشف لي عن نفسك ، او امضي بك من غير شفقة الى القسم .! قال الغريب ولم يبرحه هدؤه :
ــ لست محتاجا شفقة احد ، اني اكره العطف مثلما اكره الضعف . عاد الحارس الى حدته :
ــ على رسلك ، سوف امضي بك الى او لقسم .
رد الغريب ، وهو يهز رأسه اسفا :
ــ امضي بي الى حيث شئت ياسيدي الحارس..
انت تعلم ان ضياعي هنا ، ليس خيرا من المكان الذي ستقودني اليه .. هيه قد اجد فيه مأوى ، وطعاما آكله ، فانا جائع كما ترى ابحث عن طعام !.
ــ اي طعام ستجده في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟
ــ علي ان ابحث ولا أيأس .. انني لن اعدم امل العثور على القمامات ، والنفايات ، اجد فيها ضالتي.!
وانتابته ضحكة عصبية ، وهو يصيخ سمعه الى نباح كلب يتهادى من بعيد ، حادا متواصلا ممطوطا ، يعكر صفو الليل البهيم .. واردف :
من يدري ؟ لعله جائع مثلي يبحث عن طعام .؟
وراح يثرثر :
ــ الجوع كافر ياسيدي الحارس .. هل سبق لك ان تضورت جوعا ؟.. هل تعلم ماقالوه قديما ..؟ قالوا لو كان الجوع رجلا لقتلوه .. ولوح بقبضته صارخا :
ــ ومع هذا فانا اكره القتل .. ولا احب ان اقتل احدا ! زمجر الحارس غاضبا :
ــ مامعنى هذا الكلام .. انك تتكلم كالفلاسفة..!
قال الغريب :
ــ الجوع ، والفقر ، والحرمان ، وضياع العمر .. كلها امور تعلمك الفلسفة ، وتعلمك غير الفلسفة .. وتدفعك الى ارتكاب كثير من الحماقات .. وتجعلك فيلسوفا و .. زمجر الحارس من جديد يقاطعه :
ــ كفى ... انت تتهكم علي وتتحداني ..؟ أانت الغريب المجنون تتفلسف بمثل هذا الهذيان ؟..
ولان صوته ، عندما رأى ان جسم الغريب يهتز كريشة في مهب الريح ، بفعل نوبة مفاجهة من السعال فقال مشفقا :
ــ البرد قد اثر فيك ، احسب انك مريض على ما ارى ؟ رد الغريب ، من خلال سعالة المتقطع وعينيه الجاحظتين :
ــ لا اعرف اذا كنت مريضا او ميتا ، ولا اعرف الداء ولا الدواء .. انا في هذه الحالة منذ سنين !
ــ حيرتني يارجل .. انك لغز عجيب .!
وارسل الغريب ضحكة متقطعة كالحشرجة ، المتهالكة :
ــ لست لغزا .. انني مثلك تماما .. انسان مكتمل التكوين ، لكن حظي قليل في هذه الدنيا ، بل ليس لي حظ على الاطلاق .. هل تعرف الحظ ؟..
عيل صبر الحارس ، وهز راسه يائسا ، فدعاه الى غرفته الخشبية الصغيرة لتناول كاس من الشاي

يدفيء صدره .

وعلى ضوء السراج الشاحب ، استطاع ان يستبين طلعة الغريب تماما :

.. كان رجلا كهلا ذا جسم ناحل ، مكتمل الهيئة كما قال وقد اعفى لحيته وحفر الزمان في وجهه قسمات مقروءة مكفهرة ، وترك رؤوس اصابعه تطل من فجوات حذائه المهتريء ، وقدر له الحارس من العمر ، في سره ، ستين عاما او يزيد ، ولم يكن في تصرفاته مايدل على ميل الى الحيلة او الشر .. كانت ملامحه المكتهلة بريئة هادئة كالمحبة .!

رشف الغريب جرعة من الشاي الساخن، ذي اللهب المتصاعد ، وندت عن صدره آهة محتسبة قال في اثرها:

ـ انا ياسيدي غريب على باب الله .. انام في المساجد شتاء ، وعلى اعتاب منازلكم ، وابواب البنايات الكبيرة ، وفي حدائق المدينة الكثيرة المنتشرة صيفا .. وآكل ما اجده من فتات طعامكم اذا وجدت .. واعيش مع الليل والمجهول كما ترى واشتهي رغيفا كاملا من الخبز وصحنا من الفول .. وليس لي من احد ، سوى الله الذي انا على بابه !..

وتراقصت على شفتيه نصف ابتسامة شاحبة وأردف :

ـ ثق ان الله لم يتخل عني ابدا ، فانا لم أمت مثلا حتى الآن .. على الرغم مما اصابني من جوع ومرض .. وهو سبحانه ، لازال يمد في عمري ، ولا زالت في الحياة فسحة !

وانتابته سعلة خنقها في صدره عندما قطع عليه الحارس استرساله :

ـ هل تحب الحياة ؟..

قال الغريب :

ـ مثلما احب الموت .. كلاهما عندي سواء !

قال الحارس :

ـ هل سبق ان اشتغلت ؟

واتسعت البسمة الذابلة على شفتي الغريب ، واغتصبها ضحكة خافتة :

ـ اشتغلت كثيرا ياسيدي .. مارست البيع والشراء فخسرت ، وقالوا انها « التجارة » ملعونة هي ، يوم لك ويوم عليك ، والتحقت بعمل في ورشة تقتطع الحجارة من الجبل بالمياومة ، فطردني رب العمل قبل ان ينتصف النهار ، بحجة انني عاجز لا اصلح ، وقبلت احدى الاسر ، ان تستخدمني في قضاء شؤونها البيتية مقابل أكلي وشربي ، ولما كنت عاجزا لانفع منه يرتجى ، حسبما قالوا ويقولون ، فقد آثر افرادها ان يختصوني بكسرات الخبز الفائضة لديهم .. وكنت اشرب من عيون « الفيجة » .. وقالوا احمد الله على هذه النعمه، فحمدته ولا زلت على حمده !..

وهز رأسه مثنى وثلاث ، وراح يعتصر الكأس في يده ، كانما يريد ان يسحقها ..!

ربت الحارس كتفه بحنو :

ـ لا بأس .. لابأس .. هون عليك ولا تيأس ، وسلم امرك لله ..

ـ نعم بالله ..!

كذلك قال الغريب ، واخذ يغلو :

ـ من انبأك انني يائس مهزوم ؟؟انني حزين فقط. ان النفوس الحزينة ياسيدي لايعزيها اكثر من مصادقة نفس اخرى في حزن اقسى وافجع،ولايريحها الامرآى السواد .. انني قوي ، لازلت ذا جلد واقتدار على تدبير كسرات الخبز اليابسة وبقايا الاطعمة .. والماء كثير .. كثير .. انه يتفجر من عيون كبيرة ليس له ثمن .. مثلي تماما !..

وتنهد من جديد ، وهو يزوي مابين حاجبيه :

ـ هية .. انه القدر ، إن قدري كالتجارة التي مارستها ، ملعونة هي ، يوم لك ويوم عليك .. اما انا فقد كانت الايام كلها علي ، وكلها لغيري .. ومع ذلك فهل املك الا الحمد ...؟

وسعل سعلة جافة متقطعة ..

تنفس الحارس الصعداء .. هو ليس مجنونا كما

توهمه في البدء .. انه ذو نفس كبيرة ، اكبر من الالم، واكبر من العذاب الذي هو فيه .. العذاب الذي سمعهم يصفونه في « السنما » بأنه شريعة الحياة .. ان جليسة الغريب قوي ، اقوى من الشقاء الذي يسربله .. انه من اولئك الذين تعرفهم بسيما هم ، يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف لايسألون الناس الحافا ..

وودعه الحارس مشجعا على امل اللقاء .. وتمنى له الحظ والفلاح ، بعد ان دله على مسجد جديد .!

دس الغريب يديه الراعشتين في طيات ثوبه ، بعد ان مررهما بسرعة فوق « كانون النار » الصغير .. وابتلعه ظلام الشارع الطويل ، يرسم له الف صورة وصورة ، تتداح في خاطره ، الزاهي منها والضاحك ، والقاتم والعابس ، وكلها صورحية ، كانت تهمس في اذنيه او تصرخ ، وترقص امام عينيه ثم تتلوى !..

استفاق اهل الحي القديم ، في صبيحة اليوم التالي ، على حقيقة المقيم الغريب .. وتبدلت نظرتهم نحوه .. عرفوا من الحارس انه انسان طيب ، هبط المدينة عن حسن نية .. وانه لايؤذي ولا يسرق ولا يضرب احدا .. وعرفوا انه غريب بائس يتسكع على ابواب الله .. وانه بلا اهل ، بلا مأوى ، بلا هوية .. بلا هدف .. وعرفوا انه ليس مجنونا ، وهذا حسبهم ، فانطلق الكبار منهم يحيونه ، ويطيبون خاطره ، ويتصدقون عليه ، فيرد تحاياهم بايماءات خفيفة من راسه ، ويعزف عن تناول الصدقات .. وانشأ الصغار يتحلقون حوله، ويثرثرون ويلعبون .. وهو جالس بينهم يقص عليهم من حكايات ملوك الجن والعفاريت وعرائس الليل و « الاربعين حرامي » ، مايدخل التعة الى قلوبهم الصغيرة ، ويطمئنهم الى جليسهم الكهل ، الطيب الذي يحب جميع الاطفال !

ساله واحد منهم يوما بسذاجة وبراءة :

ـ هل لك زوجة وبيت ياعمي ..؟

اجاب الغريب بهزة من راسه علامة النفي !.. وساله آخر : هل عندك اولاد ..؟

قال الغريب : كلكم اولادي ..!

هتف ثالث فيهم وهو يقضم قطعة « الشوكالاته »:

ـ لماذا لايكون لك بيت ..؟ نحن سعداء ياعمي .. لانحزن مثلك .. انت دائما تفكر .. نحن لنا آباء .. وامهات .. وعندنا بيوت وثياب جديدة .. هل يعجبك حذائي ..؟ ويفزع نحوه غلام اكثر جراة فيقول :بل انظر .. ان حذائي جديد ..

قال الغريب يجاربهم في سذاجتهم :ليتني في مثل سنكم .. ولي مالكم .. وعندي ماعندكم ..

ويرتفع صوت غلام من « الشلة » بالدعاء :

ـ ان شاء الله .. ياعمي ان شاء الله ..

صار للغريب غرفة ضيقة يقيم فيها .. جاءوا اليه بطعام وفراش بال مهترىء .. ونظم له « ابو محمود » المختار ، حملة من التبرعات البسيطة ، وهو يشفق ان يكون جهده ضائعا مع سوء الحال الذي آلت اليه صحة الغريب .

وعندما لفظ الشتاء انفاسه الاخيرة ، وادار ظهره للدنيا ، ونيسنت سماء الحي القديم ، كان المرض قد هد الغريب فاعياه ، وكان يغمغم لصديقه الحارس الذي يلازمه في اطراف النهار ، من حين لاخر .

ـ كنت اريد ان اشكرك .. ان اعرفك باسمي .. وان احكي لك تجاربي التي تعلمتها من الحياة .. في المدن الكبيرة التي جبتها والاحياء الكثيرة التي زرتها .. كنت اريد ان أحكي لك حكاية هذه الدنيا الواسعة التي ضاقت بي فأضاعتني .. هذه الدنيا التي ليس لنا ارادة في المجيء اليها او الخروج منها .. ولكن الله لا يريد ان يتخلى عني .. الم اقل لك يا صاحبي ؟ .. ان رحمته وسعت كل شيء .. انه يدعوني .. يأمرني .. انني عبده .. واذا كان يهمك اسمي ، فان اسمي عبد الـ ....

واطبق عينيه بهدوء ، وسكنت الحركة في اوصاله، ومات اسمه على شفتيه المحمومتين مثلما عاش .. لا يدري به احد ، وخرجت روحه من الدنيا ، مثلما دخلتها ، غريبة ، تائهة ! ..

الله وحـده كان يعلم حقيقـة عبـده ، واسمه ، وهويته .. ويعلم ما له وما عليه ..

نادته الملائكة : يا عبد الصبور ابن آمنة ؟ ..

ورفع الغريب راسه ، وحملق بعينيه ، فبهرهما نور سـماوي غريب ، اضفى على المرئيـات العجيبـة الساحرة من حوله رهبة خاشعة ..

قالت الملائكة : انك الآن في ساعـة الحساب .. يا عبد الصبور اين كتابك ؟

ومد عبد الصبور كتابه بيمينه صامتا لايريم .

وقراتـه الملائكـه :

« عاش مكافحا صابرا .. ومات مكافحاصابرا.. وكـان بارا بالنـاس .. كـلّ الناس ، لم يقتلّ ، لـم يزن ، لـم يكذب ، لم يسرق ، لـم يؤذ احدا ، ولـم يأكـل رزق احـد ، ولـم يرد الاساءة بمثلها.. ولـم تأخـذ العزة بالاثم كالذين جرفهم حب الدنيا .. وحب الشهوات ، كان طيب القلب ، واسـع الصدر ، كثير الصمت ، يصعر خده للناس .. كـلّ الناس .. وكـان صالحا مـن عباد الله القانتين » ..

ابتدره الملاك الذي على يمينـه وهو يقوده :

ـ انظر حواليك .. واهنأ بمـا انت فيـه !

وقال الملاك الذي على باب الجنة :

ـ تمـن علـى ربك ياعبـد الصبور ، ان الله يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ..؟

لـم ينبس عبـد الصبور ببنت شفـة .. وراح يفرك عينيه ملهوفا .. وملأ رئتيـه بالنسيم العطـر يفوح شذاه .. واطرق يصغي الى حديث نفسه :

ـ ماأكرم السماء .. ان اسمـه يتردد هنـا كثيرا .. كاد ينساه وهو على الارض .. ماأحسـن لـم تكـن لـه مـن صلة بهم .. والآن .. اتكـون النسيـان .. لـم يكن محتاجا لاسمـه بين الناس.. الجنـة ملـك يديـه ، وهو الذي لـم يكن ليسمـح لنفسـه بأن يحلم بها فـي المنام ؟..

انقبضت أساريره ، وقـد زاد هدوء المكـان رهبة فـي قلبـه وقشعريرة .. فاختبـل الامر عليـه ، وعادت ذاكرتـه تحن الى الارض .. تنبش الدنيـا :

ـ بئست هي .. انهـا كالجيفـة .. وطفـق يتذكر كسرات الخبز اليابسـة التي كان يغمسهـا بماء « الفيجـة » .. تذكر ابواب الله الواسعـة التـي كـان يلجها ، والمدن التي كان يغدو عليهـا غريبـا ضائعـا .. بـلا هويـة .. بلا ارادة .. بلا هدف .. وتذكر ايام الشقاء ، ايام كـان يختلف على صناديـق القمامـة وبراميـل المشافـي والمطاعـم .. وسلال المهملات ، يفتش عـن شيء يؤكل ، أو يبتلـغ منـه بمـا يسد رمقـه ، ويطيل فـي عمره ، فيلوك لقمتـه وأيامـه ، كمـا يلوك الجائـع المحروم امعاءه !

وتساءل وهو مستسلـم للمـلاك الذي يقوده بيد مـن نور عـن السر الذي كـان يربطـه بالدنيـا ، والسبب الذي كـان يصلـه بالحيـاة والاحيـاء ، بعـد أن اعرضت عنـه الدنيـا ، وأدبرت عنه الحياة ، وتنكر لـه الاحياء .

ليس ثمـة سرولاسبب .. ان الدنيـامقسمـة ولا اكثر .. ومـن ليس لـه قسمـة .. ليس لـه نصيب .

مـل حديث نفسـه ، فأغمض عينيه ، واستشعر جوعـا وتعبـا شديدين ، الى متى يظل الانسـان جائعـا تعبـا .. ؟ ..

وسمـح لنفسـه ان تثرثر مـن جديد فـي دخيلتهـا :

ـ « ادفنوني عميقا .. عميقا .. ان روحي تشتاق الى الرقاد .. وقلبي يهيـم فـي عالم الابديـة .. عالـم مليء بالاحلام .. والخبز .. والاماني واخضلال

الحيـاة .. اعطوني اسمـا .. أعطوني هويــة .. أعطوني زوجـة واولادا وصحابا وثيابا جديدة . . اعطوني أهـلا وحيـاة لاتموت .. حيـاة فارعــة حلـوة كتلك التي تفتر عـن ثغر الشمس فـي رابعـة النهـار . » . .

. ولفحـه نسيـم الجنـة الرطب ، يتضوع بالعطر، ويتمـاوج برؤى الاحـلام .. فتضرج وجهـه بحمرة مشوبـة بالشباب المتجدد واندفاعـه ، وتنبـه علـى صوت ، يسيل حنانا وعذوبـة ، انبرى يناديـه :

ـ عبـد الصبور .. هـا قد وصلت الى جنتـك، تذكر انهـا ملكك .. لـك وحدك ..

وأجلسـه الملاك فـي مقصورة بديعة التكوين ، انتصبت كالعروس بـين المروج الخضر ، والورود النديـة ، والاشجـار الباسقـة يحتاطها سندس واستبرق . .

وانشأ الصوت يستحثـه مترفقـا :

ـ لـاذا أنت منكمش .. ؟ لـم لاتنطـق .. لاتتمتـع .. لاتفيـق علـى نفسـك ؟..انـك فـي الجنـة .. هيـا خـذ حظك منهـا ..

وضحك بملء فيـه :

الحظ .. ؟ آه .. لقـد وجدتـه اخيرا .. انه هنـا فـي الجنـة .. وحظوظ النـاس التي رآهـا فـي الدنيا تعلن عـن نفسهـا فـي بذخهم وترفهم وقصورهم واموالهم وبطرهم .. ماذا يسميها .. ؟ هراء ..؟ باطل ..؟هباء فـي هبـاء ..؟ زيف ..؟ نبض الريح .. ؟ حقارات .. ؟ ..

وتساءل : أي حظ سينالـه هنـا رب العمـل الذي طرده فـي نصف النهـار .. ؟ واي نصيـب سيكون مـن حق الاسرة التي استكثرت عليه فتات الموائـد .. ؟ والذين كانوا يضربونـه ، ويضطهدونـه ، ويذلونـه .. مـاذا خبأت لهـم مقادير الجنــة وموازين السـمـاء مـن حظوظ ؟ .. اغلب الظـن ان الحظ هنـا سيخونهـم ، هذا اذا كانوا ضالين !

وتذكر الباب الهائل كأنـه يسد منافذ السمـاء.. وارتعدت فرائصـه ، وهلـع قلبـه : انـه بـاب الجحيـم .. لقـد ابتسـم حارسه الملاك المخيف ، وهش لـه ، عندما مر بـه ، واراه كتـابـه الـذي فـي يمينـه !..

انبرى الصوت الملائكي ينبهه الى نفسـه بشيء مـن الانفعـال :

ـ ثب لنفسـك .. لـم يعـد لصبرك وصمتـك معنى ولا قيمـة ..

تكلـم ياعبـد الصبور .. قـل ماذا تريـد ماذا تشتهي، افصح عمـا يساورك .. انـك فـي الجنـة! واستجمـع شجاعتـه يغالب خوفـه :

ـ وماذا فـي الجنـة ايهـا الملاك الكريـم ..؟

قـال الملاك بحزم :

ـ انهـا جنـة الفردوس التي وعـد الله بهـا عبـاده الصابريـن ، خالدين فيهـا ، تجري مـن تحتهـا الانهـار .. هذه هـي انهـار العسـل واللبن حواليـك .. وتلك هـي انهـار الكوثر والخمـر امامـك .. ان فيهـا ماتشتهي الانفس .. وفيهـا فاكهـة وحور عـين ، وآباريـق مـن فضـة يطـوف بها غلمان مخلدون .. انهـا كمـا ترى نعيـم مقيم !..

وتضاءل عبـد الصبور .. وتضاءل .. واغمض عينيـه وتفصدت جبهته .. وهز راسـه .. لقـد أعيتـه الجنـة تأتيـه فجأة .. وراحت شفتاه تتمتمان بهدوء واستسلام :

ـ مادمـت فـي الجنـة .. اعطونـي رغيفـا كاملا مـن الخبز .. وصحنـا مـن الفول ..!

من الأرشيف

طبيعة الوجود

نقلاً عن ديانة الانسان لطاغور

حديث بين رابندرانات تاغور
وآينشتاين في بيت آينشتاين
بكابوت يوم ١٤ تموز ١٩٣٠
بعد الظهر

آينشتاين . — هل تؤمن بأن هناك شيئاً الهياً مفارقاً للعالم .

تاغور . — لا ، انه غير مفارق . ان شخصية الانسان اللانهائية تشمل العالم .
لا يوجد شيء لا تستطيع شخصية الانسان ان تكون فوقه وهذا يدل على ان حقيقة الكون هي الحقيقة الانسانية ، انتخبت حادثاً علمياً لتصوير ذلك . ان المادة مؤلفة من بروتونات والكترونات بينها فراغ ومع ذلك فالمادة يمكن ان تظهر صلبة . كذلك البشرية فهي مركبة من افراد ، ومع ذلك فان بين الافراد صلات وعلاقات بشرية تهب عالم الانسان صلابة حية والكون متصل بنا ايضاً على هذه الصورة ، فهو كون بشري . لقد تتبعت هذا الفكر في الفن والادب وشعور الانسان الديني .

آينشتاين . — يوجد نظرات مختلفات في طبيعة الكون :

١ — العالم من حيث هو وحدة تابعة للبشرية ، ٢ — العالم من حيث هو وجود مستقل عن العوامل البشرية .

تاغور . — اذا اتسق الكون مع الانسان الابدي عرفناه حقيقة وشعرنا بجماله .

آينشتاين . — ان هذا النظر الى الكون انساني محض .

تاغور — لا يوجد مفهوم غير هذا ان هذا العالم هو انساني ؟ ومفهومه العلمي هو مفهوم الانسان الكلي . هناك درجة من العقل والتلذذ تجعل العالم حقيقياً ، وهي مقياس الانسان الابدي الذي تصدر تجاربه عن تجاربنا .

آينشتاين — ان هذا الامر هو تحقيق للذات الانسانية .

تاغور — نعم ؟ الذات الابدية ، يجب علينا ان نحققها بانفعالاتنا وافعالنا نحقق الانسان السامي الذي ليس له حدود شخصية تشبه حدودنا . العلم يهتم بما هو غير مقصور على الافراد ، فهو عالم بشري لا شخصي . يوجد الحقائق ويجمع بينها وبين اعمق حاجاتنا . ان شعورنا الفردي بالحقيقة معنى كلياً . ان الدين يطبق على الحقيقة قيماً . والحقيقة تبدو لنا وجودية لاتساقنا وتآلفنا معها ؟

آينشتاين . — وعلى ذلك تكون الحقيقة (اي الجمال) ، غير مستقلة عن الانسان ؟ .

تاغور — نعم غير مستقلة .

آينشتاين — اذن لولا وجود افراد البشر لما كان ابولون بيلفيدر جميلاً .

تاغور — نعم .

آينشتاين — اني اوافقك على رأيك في الجمال ولا اوافقك على رأيك في الحقيقة .

تاغور — لماذا لا توافقني ان الحقيقة موجودة في الانسان .

آينشتاين — لست استطيع ان اثبت صحة رأيي ، ولكن ذلك هو ديني وايماني .

تاغور — الجمال في المثل الاعلى للانسان الكامل المتحقق في الوجود الكلي . والحقيقة هي الفهم الكامل للروح الكلية . ونحن الافراد نتقرب منها بواسطة اخطائنا وضلالاتنا وتجاربنا المجتمعة وشعورنا المستنير — كيف نستطيع ان نطلع على الحقيقة بدون ذلك ؟

آينشتاين . — اني لا استطيع ان اثبت علمياً ان الحقيقة يجب ان تدرك مستقلة عن البشرية . ولكنني اؤمن بذلك ايماناً قوياً . اعتقد مثلاً ان نظرية **فيثاغوروس في الهندسة تثبت شيئاً قريباً من الحقيقة مستقلاً عن وجود الانسان . وسواء اصح ذلك ام لم يصح فان هناك وجوداً مستقلا عن الانسان وحقيقة تابعة لهذا الوجود ، ان انكار الوجود يقتضي بالضرورة انكار هذه الحقيقة .**

تاغور . — اذا كانت الحقيقة لا تختلف عن الموجود الكلي وجب ان تكون انسانية بالذات . ولولا ذلك لما كان الحقيقي صحيحاً ، وخصوصاً الحقيقة العلمية التي يمكن الوصول اليها الا بالمنطق اي بآلة التفكير الانسانية . جاء في الفلسفة الهندية ان براهما هو الحقيقة المطلقة ، انه لا يدرك بالفكر الفردي ، وانه لا يوصف بالالفاظ بل يمكن تحقيقه بانصهار الفرد تماماً في اللانهائية . غير ان هذه الحقيقة ليست

من نطاق العلم . ان طبيعة الحقيقة التي نتناقش فيها هي ظاهرة من الظواهر اي ان ما يبدو حقيقة الفكر البشري ـ وهو بالنتيجة انساني ـ يمكن ان يدعى (مايا) اي الضلال .

آينشتاين . — وهكذا حسب رأيك (الذي قد يكون مذهب الهنود) ان هذا الضلال ليس ضلالاً فردياً بل هو ضلال البشرية جمعاء .

تاغور . — اننا في العلم نتبع طريقة تؤدي الى حذف حدود افكارنا الفردية ونصل هكذا الى مفهوم الحقيقة المرتكزة على فكر الانسان الكلي .

آينشتاين . — اذن فالمسألة هي : هل الحقيقة مستقلة عن شعورنا ؟ .

تاغور . — ان ما نسميه حقيقة كائن في الاتساق العقلي بين الوجهات الشخصية والوجهات الموضوعية للوجود ، وهذه الوجهات كلها تابعة للانسان اللاشخصي اي الذي هو فوق الاشخاص .

آينشتاين . — ولكننا نشعر ، حتى في حياتنا اليومية ، اننا مضطرون الى الاعتراف بأن الاشياء التي نستعملها كل يوم وجوداً مستقلاً عن الانسان . اننا نفعل ذلك لايجاد نسبة معقولة بين مسلمات الحواس المختلفة . مثال ذلك اذا احد لم يكن في البيت فان هذه المنضدة تبقى حيث هي

تاغور . — نعم ، انها تبقى خارج العقل الفردي ، ولكن ليس خارج العقل الكلي . ان هذه المنضدة التي اراها تدرك بشعور شبيه بشعوري

آينشتاين . — ان وجهة نظرنا الطبيعية في وجود الحقيقة مستقلة عن الانسانية لا يمكن ان توضح ولا ان تثبت ، ولكنها اعتقاد لا يفارق احداً حتى الانسان الابتدائي ، فنحن نقول بموضوعية الحقيقة ونعتقد ان « » الموضوعية هي فوق الانسان وان الحقيقة ضرورية لنا وانا ، وان كنا لا نعرف معنى هذا الوجود وحقيقته ، نثبت للحقيقة وجوداً مستقلاً عن وجودنا وتجاربنا وعقولنا .

تاغور . ـ لقد اثبت العلم ان المنضدة من حيث هي شيء صلب ليست الا ظاهرة من الظواهر ، ينتج من ذلك ان الشيء الذي اعتبره العقل البشري منضدة لا وجود له الا اذا كان العقل موجوداً . وفي الوقت نفسه يجب ان نعلم ان خالص وجود المنضدة من الوجهة المادية ليس الا جملة من مراكز القوى الكهربائية المنفصلة والدائرة بعضها حول بعض وان حقيقتها تابعة ايضاً للعقل البشري .

ان في معرفة الحقيقة نزاعاً ابدياً بين الفكر البشري الكلي والفكر البشري الضروري . وهناك وئام دائم يحصل بين علمنا وفلسفتنا واخلاقنا . وعلى كل حال فانه اذا وجد حقيقة مطلقة لا علاقة لها بالانسانية فهي بالنسبة الينا غير موجودة .

ليس من الصعب ان نتخيل فكراً لا يطلع على الاشياء ضمن نطاق المكان بل داخل نطاق الزمان كترتيب الاصوات في الموسيقى . ان مفهوم الوجود بالنسبة الى هذا الفكر متصل بالوجود الموسيقي الذي لا معنى للهندسة الفيثاغورية فيه . ان حقيقة وجود الورق مختلفة تماماً عن حقيقة وجود الادب . فالادب غير موجود بالنسبة الى الحشرات التي تأكل الورق ، ولكن بالنسبة الى عقل الانسان للادب قيمة اعظم من حقيقة الورق . وبالصورة نفسها اذا كان هناك حقيقة ليس لها بفكر الانسان علاقة حسية او عقلية فلا قيمة لها بالنسبة الينا مادمنا بشراً .

آينشتاين . — اذن ، انا اكثر ايماناً منك

تاغور . — ان ديانتي هي في الاتفاق بين الانسان اللاشخصي (اي الفكر البشري الكلي) وبين الوجود الفردي . وهذا هو موضوع محاضراتي في هيبر التي سميتها ديانة الانسان .

نقلا عن ديانة الانسان
لتاغور

من الشعر القديم

بذلت لعراف اليمامة حكمة — وعراف نجد ان هما شفياني
فما تركا من سلوة يعرفانها — ولا رقية آلا بها رقياني
فقالا شفاك الله والله مالنا — بما ضمنت منك الضلوع يدان

عروة بن حزام

كلمة الدكتور علي منصور

في حفل إحياء ذكرى الفقيد عياد

السادة الزملاء
ايتها السيدات والسادة ..

انطلاقا من تكريم السيد الرئيس ، حافظ الاسد ، للعلم والعلماء في قطرنا تقيم كلية التربية هذا الحفل التأبيني احياء لذكرى الفقيد الغالي المرحوم الدكتور محمدكامل عياد الذي يستحق منا كل اجلال واكبار. لقد طوى درب الوجود بعد ان ترك وراءه قصة حياة حافلة بالعمل الجاد والمخلص . وقد كان يسعى من وراء كل ذلك الى بلوغ الكمال مهما عظم الجهد وغلت التضحية ، فقد تميز بارادة قوية وعزيمة صلبة وعمل بصير وصمت لاكتناه الحقيقة وبلوغ الحكمة فكان إحد أعلام الثقافة والفكر في هذا القطر وواحدا ممن تجسد فعله في قوله وصار كلامه عملا وسلوكا فحقق الوجود على نحو رائع وفريد

لقد كان مجيء الفقيد الى سورية مع اسرته المكافحة نتيجة للظلم والقهر ، الذي فرضه الاستعمار الايطالي على الشعب العربي الليبي ، في مطلع هذا القرن ونتيجة للارهاب والتعسف ، الذي وقع على ذويه وأهله فلم يجدوا آنذاك بدا من الهجرة الى ديار آمنة ، وفي سورية العروبة وجدت اسرة الفقيد كما وجدت اسر عربية وفدت من شتى اصقاع العروبة من المغرب والمشرق ، العراقة والاصالة ، الرعاية والعطف ، والمحبة ، مما جعل القادمون الجدد يشعرون بالطمأنينة والاستقرار من جهة ، وبالحاجة لاستئناف النضال الذي بدؤوه في ديارهم الاولى من جهة اخرى ، فانتقلوا بذلك من جبهة نضالية لينخرطوا في جبهة أخرى فالاستعمار الايطالي في ليبيا هو نفسه الاستعمار التركي او الفرنسي في سورية .

لقد شد الشوق الفقيد الى الحكمة والمعرفة ، فقرر العودة الى بدايات انطلاقة الفكر البشري

وارهاصات الحضارات الاولى فضرب في مجاهل الفكر الاغريقي البعيد وساير مجرى تدفقه نحو الشرق ووقف على حيوية روافده وغرف من ينابيع هذا التيار العظيم وانعكاساته ، وتتبع تفاعلاته مع الفكر العربي الاسلامي وذهب بعيدا عندما قرر الغوص في احد دواوين الفكر البشري الموسوعي النادر قديما وحديثا حيث انكب على دراسة ابن خلدون باعتباره احدا اهم نتاجات التفاعل الحضاري الاغريقي العربي الاسلامي وخرج من البحر الخلدوني الزاخر بالاصداف والدرر فكشف عن سر عظمة ابن خلدون ، وعبقريته وانتمائه ، فما الم به تعب وما لانت له عزيمة او اضعفته المشاق .فانطلق يجني ثمار الثقافة في رحاب الفكر الانساني ويتزود بزاد الحكمة والفلسفة والعلم دون ان تغريه مباهج الحياة وزخارفها ، كما اغرت غيره من قبل ومن بعد فكان الناسك الحقيقي في محراب المعرفة اخذ منها وفاض بها ما مكنه من بناء ذاته ، وتشكيل وعيه الثوري التقدمي .

وبذلك امتلك ادوات ووسائل ساهمت الى حد بعيد في بناء وعي جيل طليعي حمل راية الوطن والامة فادى بذلك الامانة كأحد الرواد القلة الاوائل .

لقد اختار ان يكون معلما وصاحب رسالة وقلمايبلغ بواسطته نبضات فكره وعصارة جهده واشراقة ذهنه وصفائه عمل استاذا فكان الاخ المحب لطلابه فأحبوه واجلوه .

نقل اليهم المعرفة ونماهم على حب الحقيقة والعمل في سبيلها ، وكان مثلهم الاعلى في التواضع والعمل الدؤوب والاخلاق الفاضلة والسجاعة الادبية النادرة

لقد كان الفقيد علما من اعلام الفكر انتشر عبق فكره بين طلابه وازداد شيوعا عبر الصحافة والكتب وعبر المحافل الفكرية والندوات والمحاضرات المتخصصة منها ، والعامة ، فحقق بذلك هذا الربط الذي ما زلنا نبحث عنه بين المؤسسة الاكاديمية المتخصصة وبين الجماهير بغية ترقية هذا النضال وقياداته واضفاء الطابع العلمي عليه وتثويره وتعميقه وجعله ضمانة للتقدم والازدهار ..

أيها السادة الحضور ..

لقد عرف فقيدنا بفكره النير ، وبحماسته المتوقدة ، وبدعوته الحارة للنضال ، ضد الاستعمار وضد كل اشكال القهر والاستغلال ، ويعد من اوائل رواد الفكر الاشتراكي ، في هذا القطر ، واحد المساهمين الفعالين في ايجاد ركائزه ومنطلقاته ، وبذلك اسهم في ارساء دعائم حركة التحرر القومي العربي المعاصر وأعطى وطنه وأمته الشيء الكثير من علمه وجهده .

لقد نشأ الفقيد عربيا أصيلا ، مؤمنا بالوحدة العربية وداعية لها ، تعلم دروس الجهاد والنضال ، فتمثلها وعلمها للاجيال في مختلف اقطار العروبة من طرابلس الى دمشق فبغداد والقاهرة وعمان . وكان الفقيد رجل الاهداف السامية ، والقيم النبيلة ، آمن بها ، وترجمها لينير الطريق امام الطامحين من ابناء هذه الامة ، لبناء الحياة الجديدة والغد المشرق .

كذلك كان الفقيد مؤمنا

بفاعلية العمل التربوي ، فاتخذ منه مهنة وحياة . ويعود سبب ذلك في اعتقادي الى ان خصوصية العمل التربوي ، تتجلى في المقام الاول في نسيج القول والعمل ، وفي مزج معطيات الفكر والعمل ، وتلون ايقاعاتها ، فالتربية في جوهرها عقيدة ورؤى ، عن فعل الانسان وامكاناته وصيرورته وتحولاته عبر الممارسة في أفق انساني حضاري .

وهي ايضا فلسفة ورسالة ، مستخلصة من الخبرات العملية للانسانية وافاعيلها ، كما انها الصورة والنموذج الامثل وعيا وفعلا ، نظرا وخبرة ، شكلا ومضمونا ، انها الكيفية والطريقة التي يتمثل فيها بعث صورة الصورة حية فينا ، فالتربية حركة وسلوك خلاق وانتقال مستمر من الفكر الى العمل ، ومن العمل الى الفكر ، كما ان تقدمها مرهون بهذا الانتقال ومرونته وتلقائيته .

أيها السادة الحضور ..

هكذا ربط الفقيد حياته بحياة شعبه ، ومصيره بمصير امته عاش غنيا بفكره وسلوكه ورحل غنيا بالذكرى الطيبة النافعة ، التي ورثناها بعد رحيله .

وأننا لنذكره دائما ، من خلال مسيرة حياته ، الحافلة بالعطاء ونأمل ان نسير على الدرب التي انتهجها ، والسلوك الملتزم الذي اختاره وقاده طيلة حياته فليس للامة في ايام المحن كالتي نجتازها اليوم الا ، المتنورين والمثقفين المخلصين ، الذين استطاعوا ويستطيعون تحويل الافكار العظيمة العميقة البعيدة الى افعال واعمال تتمثل في حركة وفعل الجماهير الكادحة ، ونضالاتها الدؤوبة في افق عربي انساني اشتراكي متحرر .

فليكن الفقيد نبراسا نعيش من فيض فكره ، مرشدا نهتدي به في السلوك والممارسة

تغمد الله الفقيد برحمته واسكنه فسيح جنانه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عميد كلية التربية ـ جامعة دمشق
د . علي منصور

صديقي الدكتور كامل عيّاد

بقلم الدكتور: شاكر فحّام

كلمتي اليوم دمعة وفاء آذرفها أسى على فراق استاذنا الكبير الدكتور محمدكامل عياد، الذي تعلمنا منه طلابا، وآنسنا بصداقته كبارا، وشهادة صدقي بما عرفت من شمائل الرجل الكريم وسجاياه ومناقبه.

فسيرته، رحمه الله واسبغ عليه واسع رضوانه، صفحات عطاء لا ينضب، وهب نفسه لتحقيق المبادىء والقيم الوطنية والاخلاقية التي آمن بها، وصدق في الدفاع عنها، وقضى حياته يبشر بالمحبة والسلام، ويكافح قوى الشر والعدوان [illegible] أنواعها.

كان رحمه الله المعلم المربي حقا، وكان رحمه الله رجل الاخلاق لا ينفصل الفكر عنده من السلوك.

تفتحت عيناه لينصت في بيت ابيه الشيخ علي عياد الى احاديث الوطنية، وماتبيته اوربا الاستعمارية للوطن العربي، وتشبع بتلك المقالات التي كان يدبجها ابوه في جريدة الترقي وزملاء ابيه الوطنيون، يحرضون الشعب على مقاومة الغزو الاستعماري الايطالي.

ولما وقعت الواقعة واجتاحت جيوش الاستعمار الايطالي الارض الليبية خرج مع ابيه مهاجرا ليقيم في بلاد الشام، يملأ قلبه حب عميق لوطنه، وكره كبير للظلم والظالمين والاستعمار والمستعمرين، وظلت هاتان العاطفتان تملكان على الاستاذ الكبير نفسه ومسلكه طوال حياته. وأنت قادر بها ان تفسر تلك المواقف المبدئية التي وقفها الدكتور عياد: نفخ في نفوس طلابه حب الحرية والاستقلال، واجج بمقالاته شعلة الوطنية لدى الجماهير. وقاوم الاستعمار الفرنسي اعنف المقاومة، وتحمل في سبيل ذلك صنوف الاذى حتى اضطر الى الهجرة الى العراق ثلاث سنين، وبقي كل ايامه المخلص لمبادئه، الصلب في مواقفه، لم يلن ولم يفتر.

ذهب في مطلع شبابه الى المانيا، فدرس بجامعة برلين الاداب والفلسفة، وقدم اطروحته التي تناول فيها (نظرية ابن خلدون في التاريخ والاجتماع) ودل بها على مقدرته الفذة في دراسة التراث، وتبين جوانبه المشرقة الملهمة التي اراد الغربيون طمسها.

ولقد اشتغل في برلين، الى جانب دراسته، بالصحافة، واشترك في تأسيس مجلة "الحمامة" وجريدة (صدى الاسلام) والحق اننا نشهد في مسلكه هذا البذور

الطيبة التي تفتحت ونمت فيما بعد احسن النماء.

أول ما يروعك في الدكتور عياد تفاؤله العميق وايمانه بأمته . كان يرى ما انزل الاستعمار بالامة العربية من ضروب التجزئة والتفكك والتخلف، ولكنه، وهو المؤرخ الحق الذي يرصد بواعث النهضة وعواملها، لم يكن ليقف عند هذه الظواهر، مبشرا بمستقبلها المشرق وغدها الواعد.

آمن بالجماهير، ووثق بقدرتها التي لا تحد، للخلاص من الاستعمار وصنع المستقبل الزاهر، فعمل ما في وسعه ليكون على صلة حميمة بها . وفي هذا تفسير لولعه بالصحافة، يخاطب عن طريقها جماهير الطبقة المثقفة ومن وراءها .

واذا تجاوزنا تجاربه الاولى في برلين وما قبلها، فاننا نجده يعمل في الصحافة بدمشق ثلاث سنوات) ١٩٣٠- ١٩٣٣) ، وشارك في تأسيس مجلتي (الثقافة) و المعلمين والمعلمات) بدمشق ، ونشر المقالات الكثيرة فيهما ، وفي اخوات لهما مثل مجلة الطليعة ومجلة الطريق ومجلة النقاد ومجلة المعلم الجديد، ومجلة المعلم العربي ومجلة مجمع اللغة العربية ومجلة المعرفة ومجلة كلية التربية التي كان امين تحريرها ، يضم الى ذلك ما كان ينشره في الصحف اليومية والاسبوعية ، وكانت هذه المقالات سبيله لايضاح افكاره ، وبسط آرائه الاجتماعية والسياسية والافصاح عن خطه التقدمي وتبصير الجماهير ودعوتها الى الثورة لتغيير الواقع الفاسد .

اما ميدانه الرحب فكان في التربية والتعليم ، اقبل عليه منذ عام ١٩٣٣،واندفع بكل قواه وطاقاته يعلم طلابه ، ويفتح لهم ابواب المعرفة ، وينمي فيهم حب البحث والمتابعة للوصول الى الحقيقة ، يقول في محاضرة له : ان مفهوم الجامعة يتضمن دوما الاخلاص للعلم واحترام الحقيقة " (مهمة الجامعة في العالم العربي - ص ٢٤/ حزيران ١٩٥٥)

وكان يؤلف لهم الكتب يضمنها اللباب المفيد . يقول في مقدمته كتاب له في التاريخ : " لم نقتصر على سرد الحوادث ، بل وجهنا اكبر عنايتنا الى دراسة الحضارة ، ومراحل تطور الفكر الانساني في مختلف العصور "
(الشرق القديم - الصف السادس - دمشق ١٩٣٥)

ثم كان يبث في نفوس طلابه القيم الوطنية والاخلاقية ويذكي فيهم روح التقدم ، ويحضهم على التمسك بالمبادىء والمثل العليا لا يحيدون عنها ، يقول في كتابه علم الاخلاق (ص ٤٧١/دمشق ١٩٤٢) : " وليس من الضروري ان نتبع في السياسة مبادىء (ماكيافلي) التي تدعو الى مخالفة القواعد الاخلاقية عندما تتطلب ذلك مصلحة الدولة ، بل ان القيام بواجباتنا تجاه امتنا ووطننا ، اذا فهمنا هذه الواجبات على الوجه الصحيح، شرط ووسيلة لتكاملنا الاخلاقي والانساني " .

لقد احب الدكتور عياد طلابه ، وفهمهم ، وصادقهم ، وساعدهم وتخرج به جيل كامل تعلم على يديه في دمشق وبغداد والاردن

وبادله طلابه حبهم واحترامهم كانوا يتحدثون عنه باحترام في مجالسهم ويتناقلون كلماته . واني لأذكر كيف كنا نتدافع بالمناكب ، نحن طلاب البكالوريا الثانية - قسم الرياضيات ، لنشارك زملاءنا

قسم الفلسفة الحظوة بسماعه في قاعة الدرس والاخذ عنه ، ونحس النشوة وهو يلقى دروسه في الاخلاق لعل من اجمل الامثلة على هذا الحب المتبادل بين الاستاذ وطلابه ، ما اجمع عليه اساتذة قسم التاريخ بكلية الاداب من ضرورة طبع امالي استاذهم في تاريخ اليونان تقديرا لعلمه ، وعرفانا بأياديه عليهم ، فما كان من الاستاذ الكبير الا ان سطر في المقدمة هذه الكلمات الحلوة التي تفصح عن الحب الودود الذي ملأ قلبه ، وتنبيء بالتواضع الكريم الذي عرف به ، قال :

" انه لمن اكبر دواعي الاعتزاز والرضا لأمثالي من المدرسين ان نرى تلاميذنا القدماء يسبقوننا في البحث العلمي ، ويحملون بعدنا شعلة المعرفة ، ويسهمون في نشر الثقافة ، (تاريخ اليونان ، الجزء الاول / دمشق ١٩٦٩) •

وكان الدكتور عياد نير الفكر ، موسوعي المعرفة ، منهوما بالقراءة ، يتابع كل جديد ،وكان يشارك في مختلف نواحي النشاط التي ترمي الى تحرير المجتمع من قيوده ، وتفسح له طريق التقدم والرقي •

كانت تتملكه ابدا روح المعلم المربي ، والثوري الخلاق •

آلف وترجم وحاضروحبر المقالات الكثيرة في الصحف والمجلات ، وشارك في المؤتمرات العلمية والوطنية والسياسية •

وتبدو في مؤلفاته ومقالاته اثار التدقيق والتأني • كان يروي في كل ما يقول ويكتب ، تلمح ذلك في كل ما يصدر عنه ، بل انك لتعجب لاناته وانت تتأمل خطه الجميل الانيق الذي كان يرسمه بعناية فائقة •

نشر بالاشتراك مع الدكتور جميل صليبا كتاب حي بن يقظان لابن طفيل (ط ١ ،دمشق ١٩٣٥ م ٩ ، والمنقذ من الضلال للغزالي (ط ٥ دمشق ١٩٥٦م) وابن خلدون منتخبات دمشق - ١٩٣٣م) وقدم لها بدراسات وتحليلات ، ثم اصدرا كتاب المنطق وطرائق العلم الهامة (دمشق - ١٩٤٧م)

ومن مؤلفاته : كتاب علم الاخلاق (دمشق ١٩٤٢م) وتاريخ اليونان •

ومن مترجماته : الرأي العام (مطبوعات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٢م) وكتب التاريخ المدرسية والتفاهم الدولي (مجلة المعلم العربي ، ايار ١٩٥٩م)•

لقدكانت كتاباته جولات موفقة ، خاض فيها بقلمه الرشيق، وعباراته السلسة ميادين التاريخ والحضارة العربية والتربية والفلسفة والمنطق وعلم الاخلاق ، وما يتصل بها من قضايا اجتماعية يطرحها العصر •

ويطالعك في بحوثه كلها نظراته المبدعة تجمع الجدة والابتكار والعمق والاستقلال في الراي ، يورد ذلك كله في تواضع اخاذ ، لا يكاد يشعرك بما قدم اليك ، وما بذل من جهد من اجلك •

ورشحه زملاؤه واخوانه في مجمع اللغة العربية ، فانضم الى مجمع الخالدين في عام ١٩٥٨وكان له مشاركات جادة نافعة في مجلس المجمع ولجانه المتخصصة ، وعلى صفحات مجلة المجمع يبدو جانب من نشاطه الثقافي الذي تواصل في المجمع مدة ثمانية وعشرين عاما ، كان يعطي كعادته عطاء غيرممنون ، ومن لا يذكر مقالاته

الرائعة في تاريخ الاستشراق وفي التاريخ الاسلامي •

وكان ختام ما قام به من جليل الاعمال ما قاسم به زملاءه في الموسوعة الفلسطينية ، من عمل دائب تعاونوا جميعا حتى اكتمل وانجز واصدر • وما انس لا انس فرحته الكبرى وهو يقلب اجزاء الموسوعة الاربعة فرحا مغتبطا بهذا العمل الكبير •

وظل الاستاذ عياد حريصا على اداء عمله في المجمع • شاركنا في اخر اجتماع عقده المجمع في حياته ، وفارق الدنيا ويده تخط مقاله الاخير للمجلة في التعريف بكتاب المستشرق الالماني شتيفان ليدر وهو(ابن الجوزي وكتابه ذم الهوى) الذي صدر ببيروت عام ١٩٨٤•

لن افي استاذنا الكبير عياد بكلمتي الموجزة بعض حقه علينا ، ولن اقوى على تعداد اياديه وما اكثرها ، وان بياني ليعجز عن وصف شمائله الحميدة ، وما فطر عليه من خلق كريم ،وما تحلى به من آداب •

عاش حياته كله وفيا لمبادئه ، دعا الى التحرر : تحرر الانسان من ربقة الاستعمار والخوف والفقر والجهل •• ونادى بالاشتراكية طريقا لانصاف المستعبدين والمظلومين ، وتعني الاشتراكية عنده : " الحرية ،، التضامن والارتباط العفوي بين البشر ، رفض كل قهر وارغام ، الثورة والنقمة على كل ظلم واستبداد ، الانسانية والتسامح وحب السلام •• "

كان قلبه يفيض بالمحبة والخير لأمه وللانسانية ، وكان يؤلمه ما تعاني منه الشعوب المسحوقة تحت وطأة ضربات الاستعمار والامبريالية التي لاترحم فيعلو صوته مبشرا باشراقة الفجر الجديد ، ومؤكدا ان " الثورة شرط للاصلاح " •

لقد نذر نفسه لخدمة المثل والافكار التي آمن بها، وتحمل ما تحمل من ضروب الاذى في سبيلها ، ولقد كان القدوة البالغة بسلوكه قبل فكره ، وبايمانه قبل منطقه ، عزف عن كل مغريات الحياة وزينتها ليظل الداعية المخلص لتعليمه ومبادئه ، وخاض معارض مشرع الراية ابدا حتى وافته المنية يوم الجمعة (١٩ربيع الاول ١٤٠٧ هـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٦م) رحمه الله الرحمة الواسعة ، وجزاه الجزاء الاوفى •

آثار الاستاذ الدكتور محمد كامل عياد

اولا مؤلفاته :

١- كتاب التاريخ (الصف الرابع الابتدائي) الفه بالاشتراك مع الاستاذ عبد الغني باجقني (دمشق ١٩٣٤م)•

٢ - تاريخ الشرق القديم (للصف السادس) من سلسلة دروس التاريخ العام) • الفه بالاشتراك مع الاستاذين جورج حداد ونظيم الموصلي (دمشق - ١٩٣٥م)

٣ - تاريخ العصور القديمة (للصف الاول من المدارس المتوسطة) الفه بالاشتراك مع الاستاذين جورج حداد، ونظيم الموصلي (دمشق ١٩٤٨م)

٤ - ابن خلدون ، منتخبات (قدم له بدارسة) اصدره بالاشتراك مع

الدكتور جميل صليبا (دمشق ١٩٣٣
٥ - المنقذ من الضلال للغزالي (قدم له بدارسة) اصدره بالاشتراك مع الدكتور جميل صليبا (دمشق - ط ٥ - ١٩٥٦م)
٦ - حي بن يقظان لابن طفيل الاندلسي (قدم له بدراسة) اصدره بالاشتراك مع الدكتور جميل صليبا (دمشق - ١٩٣٥م)٠
٧ - المنطق وطرائق العلم العامة، الفه بالاشتراك مع الدكتور جميل صليبا (دمشق - ١٩٤٧)
٨ - كتاب علم الاخلاق - (دمشق - ١٩٤٢م)٠
٩ - اديب عربي واديب سوفييتي عمر فاخوري ومكسيم غوركي دمشق، ١٩٤٦م) ٠(١)
١٠- تاريخ اليونان (الجزء الاول) (دمشق - ١٩٦٩)٠

ثانيا : مترجماته :

١- كتب التاريخ المدرسية والتفاهم الدولي (ج ٠ أ٠ لوفريس) (دمشق - المعلم العربي / ايار ١٩٥٩م)٠
٢ - الرأي العام (الفريد سوفي) (دمشق - ١٩٦٢ م)

ثالثا : طائفة من مقالاته :

أ - في مجلة المعلمين والمعلمات:

١- سعادة التعليم ع١/س١- انيسان ١٩٣١
٢- المدرسة والحياة ع٢/س١ ١٢ايار ١٩٣١
٣ - التلميذ والمعلم ع٣/س١ - ٢٨ حزيران ١٩٣١
٤ - الطفل ونظرته الى العالم ع ٤ و ٥/ س١- تشرين الاول ١٩٣١٠
٥ - التحليل النفسي ع ٦/س ١ - كانون الاول ١٩٣١
٦ - نظرية ادلر ع ٧/ س ١- كانون الثاني ١٩٣٢
٧ - التربية الصحيحة ع ٧/ س ١ - كانون الثاني ١٩٣٢
٨ - ماذا يمكننا ان نقتبس عن بستالوزي - ع ٨/ س ١- شباط ١٩٣٢
٩ - الشبيبة الجديدة - ع١٠/س١- نيسان ١٩٣٢
١٠- الطفل اليائس ع١٢/ س ٢ - تشرين الثاني ١٩٣٢
١١- الكتب المدرسية ع١٣/ س٢ - كانون الاول ١٩٣٢
١٢- بين الاباء والابناء ع ١٤/س ٢ ؟ كانون الثاني ١٩٣٢
١٣ - الطفل وفكرة الابداع والاختراع ع ١٦/س ٢ - آذار ١٩٣٣
١٤- العقوبة والمكافأة - ع١٧/س ٢ نيسان ١٩٣٣
١٥- ماذا يقرأ اولادنا ع ٢٠/ س ٣ تشرين الاول ١٩٣٣
١٦- الحكومة ومهنة التعليم : ع٢١ / س ٢ - تشرين الثاني ١٩٣٣
١٧- المحبة وقراؤها ع٢٢/ س ٣ - كانون الاول ١٩٣٣
١٨- التطور الجديد فيمذاهب التربية ع ١/ س ٥ تشرين الاول ١٩٣٥
ع ٢و ٣/ س٥ - ت ٢ و ك ١ ١٩٣٥
ع ٤/ س ٥ - كانون الثاني ١٩٣٦

ب - في مجلة الثقافة

١- الاصطفاء الطبيعي وبقاء الانسب ج ١/ س ١- ٥ نيسان ١٩٣٣
٢ - الازمات وتعليلها في التاريخ ج ٢/ س ١- ٥ ايار ١٩٣٣
٣ -السنوسي - ج ٢ / س ١- ٥ ايار ١٩٣٣
٤ - نهضة اليابان ج ٣ / س- ٥ حزيران ١٩٣٣
٥ - امرأة المستقبل ج ٣/ س ١ - ٥ حزيران ١٩٣٣
٦ - الجندي (شوايك) مقتبسة -

ج ٤ / س ١ـ ٥ تموز ١٩٣٣
٧ ـ الخطر الابيض ج ٥/ س ١ ـ
٥ آب ١٩٣٣
٨ ـ مونتاين والهنود الثلاثة ـ
ج ٥/س ١ ـ ٥ اب ١٩٣٣
٩ ـ غانيمه د . تعريب ـ ج ٧/س ١ـ
٣٠ كانون الاول ١٩٣٣
١٠ـ الكتاب والعالم ـ تعريب ـ
ج ٨/س ١ـ ٣١كانون الثاني ١٩٣٤

ج ـ في مجلة الطليعة :

١ـ ماذا كنتم تصبحون لولا الادباء
غ ١/ س ١ ـ ١٦آب ١٩٣٥
٢ ـ الجماهير تتحرك ع ١/ س ٢ ـ
آذار ١٩٣٦
٣ ـ السياسة كمهنة ـ ع ٣/س ٢ ـ
ايار ١٩٣٦
٤ ـ الثورة الفرنسية والشرق ـ
ع ٧/ س ٥ تموز ١٩٣٩.

د ـ فيمجلة المعلم الجديد (بغداد)

١ ـ التربية السياسية للناشئة ـ
ع ١/ س ٢ ـ شباط ١٩٣٧
٢ ـ صفات المربي ومشاكل مهنته ـ
ع ٢ / س ٢ ـ ايار ١٩٣٧
٣ ـ تأثير البيئة في الناشئين،
ع ٣و ٤ / س ٢ كانون الاول ١٩٣٧.

هـ ـ في مجلة الطريق

١ ـ الاخلاق والحياة الاقتصادية (٢)
مج ١ / ج ٨ ـ ٣٠ نيسان ١٩٤٢
٢ ـ حق التملك مج ١/ج١٠ـ ١٠حزيران
١٩٤٢
٣ ـ المعضلة الاجتماعية والمذاهب
الاقتصادية مج ١/ج١١ـ ٣٠حزيران
١٩٤٢.
٤ ـ المعضلة (من افلاطون الى
ماركس) مج ١ / ج١٣ ـ ٣١ تموز
١٩٤٢

٥ ـ المعضلة (الاشتراكلية العملية
الماركسية مج ١/ ج ١٤ـ ١٥ آب /
١٩٤٢
٧ ـ نظام الجيش الاحمر ـ مج٢/ج٣/
و ٤ ـ ٢٠ آذار ١٩٤٣
٨ ـ التربية المدنية السياسية ـ
س ٣ / ع ٤ و ٥ و ٧ ـ ١٩٤٤
٩ ـ كيف بدأ التفكير العلمي
حديث (٣) ـ س ٦/ ع ١ـ كانون
ثاني ١٩٤٧
١٠ ـ أثر العلم في بناء
الاشتراكية السوفياتية :
س ٦/ع ٩ ـ ايلول ١٩٤٧

و ـ في مجلة المعرفة (دمشق)

١ ـ اهداف التربية ع ٢ـ كانون
الثاني ١٩٤٧ . ع ٣ شباط ٩٤٧
٢ ـ التوجيه المدرسي ع ٧ و ٨ ـ
حزيران ١٩٤٧

ز ـ في مجلة المعلم العربي
(دمشق ـ وزارة التربية)
١ـ التاريخ بين منهجين ـ س ١/ع ١
كانون الثاني ١٩٤٨.
٢ ـ أهداف التعليم في سورية :
س ٣ / ع ١تشرين الثاني ١٩٤٩.
٣ ـ تربية العمل ـ س ٣/ع ٢ و ٣
ـ ك ١، ٩٤٩/ ك ٢ ، ١٩٥٠
٤ ـ التخيل س ٤ / ع ٣ ـ كانون
الثاني ١٩٥١.

ح ـ في مجلة النقاد

١ـ معرفة النفس ـ س ٥/ع ٢١٢ ـ
١٧كانون الثاني ١٩٥٤
٢ ـ لكل يوم غد ـ س ٥ / ع ٢١٦ ـ
١٤شباط ١٩٥٤
٣ ـ الفكر والعمل ـ س ٥/ ع ٢١٨ـ
٢٨ شباط ١٩٥٤.
٤ ـ كيف تجابه الشدائد
س ٥ / ع ٢٢١ ـ ٢١ اذار ١٩٥٤

ط - مجلة كلية التربية (جامعة دمشق) .
١- البيئة البيتية س ١/ ع ١ - ١٩٥٥
٢ - البيئة القروية س ١/ ع ٢- ١٩٥٥.

ي - في مجلة الابحاث (بيروت)
١- ما هي الجامعة (ع ٢/س ٨ - حزيران ١٩٥٥

- في مجلة المعرفة (دمشق - وزارة الثقافة)

١- نظرية لينين في المعرفة - ع ٩٩ - ايار ١٩٧٠

يب - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

(١) - المقالات :
١- كلمة في حفل الاستقبال :
مج ٣٤/ ج١- سنة ١٩٥٩
٢ - صفحات من تاريخ الاستشراق،
مج ٤٠/ج١و ٢ و ٣ سنة ١٩٦٥
مج ٤٣/ ج ٣ - سنة ١٩٦٨.
مج ٤٤/ ج ٣ و ٤ - سنة ١٩٦٩
مج ٤٥/ج ١- سنة ١٩٧٠
مج ٤٨/ج٢ - سنة ١٩٧٣
٣ - ابو الفداء : الملك العلامة
مج ٥٠/ج ١- سنة ١٩٧٥
٤ - عبر التاريخ : مج ٥١/ج٤ سنة ١٩٧٦.
٥ - محمدكرد علي والمستشرقون :
مج ٥٢/ ج ١- سنة ١٩٧٧
٦ - تأثير ابن رشد على مر العصور
مج ٥٤ / ج ١- سنة ١٩٧٩
٧ - السيرة الذاتية للمستشرق الالماني بروكلمان / مج ٦٠/ ج ٣ سنة ١٩٨٥
(٢) - التعريف والنقد :

١ - نحن و التاريخ مج ٣٥/ ج٢ - - سنة ١٩٦٠
٢ - تاريخ تطوان - المجلد الاول - مج ٣٥/ ج ٢ - سنة ١٩٦٠
٣ - ماساهم به المؤرخون العرب في مائة السنة الاخيرة / مج٣٥/ج٣ سنة ١٩٦٠
٤ - مستقبل التربية في الشرق العربي مج ٣٧/ ج ٣ - سنة ١٩٦٢
٥ - كتاب الاثيقون او فلسفة الاداب الخلقية : مج ٤٤/ ج ٣ سنة ١٩٦٩.
٦ - كتاب الحروف : مج ٤٧/ج ١ - سنة ١٩٧٢
٧ - خليل مردم بك الشاعر وديوانه باللغة الالمانية مج٤٩/ج ٢ - سنة ١٩٧٤.
٨ - المعجم الفلسفي مج ٥٠/ ج ١- سنة ١٩٧٥
٩ - هنري برغسون (التطور المبدع) مج ٥٨/ ج ٤ سنة ١٩٨٣
١٠- التاريخ المنصوري مج ٥٩/ ج١ سنة ١٩٨٤.
١١- رسالة عبد الحميد بن يحيى: مج ٦٠/ ج ٤ - سنة ١٩٨٥

يج - في مجلة الحوليات الاثرية السورية (٤) :

١- التنقيب عن اثار اليمن :
٧٦/١ - ٩٤
٢ - خربة المنية عند بحيرة الناصرة ١٣٩/٢- ١٤٨
٣ - تقرير عن الحفريات في الرصافة ٥٢٤/ ١٠٧- ١١٨
٤ - حفريات الرضافة ٤، ٥ /١٢٦، - ١٣٦
٥ - تقرير موقت عن حفريات تل الفخيرية ١١٤/٦- ١٢٤
٦ - الحفريات في الرصافة :
١٦٣/٩٢٨ - ١٩٤ .

يد – في مجلة دراسات تاريخية

١– اثر صقلية في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاوروبيين ٥/١٤– ٢٩

يه – مقالات اخرى :

١– توماس مان
٢ – التربية التي نحتاج اليها في عصر التصنيع
٣ – الامبرطور فردريك الثاني تلميذ العرب واول اوروبي حديث
٤ – الثورة شرط للاصلاح ٠
٥ – هيرودوت وبلاد العرب
٦ – رسالة محمد (ص) ٠
٧ – عمرة القضاء ٠
٨ – الدكتور جميل صليبا (كلمة القاها في حفل تأبينه) ٠ ١٩٧٦/١٢/٢٠ ٠
٩ – العلاقات التاريخية بين الصين والعرب ٠
١٠ – الرحالة (آلويس موزيل)
١١– سورية لن تخضع للاستعمار ٠

الهوامش :

(١) : انظر معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين للاستاذ عبد القادر عياش: ٣٧٤
(٢) : المقالات (١– ٦) ، راجع كتاب علم الاخلاق للاستاذ الدكتور محمد كامل عياد ، ص ٣٨٩ – ٤١٩
(٣) : راجع المدخل لكتاب المنطق وطرائق العلم العامة تأليف الاستاذين الدكتور محمد كامل عياد والدكتور جميل صليبا ٠
(٤) : انظر دليل الابحاث التاريخية في المجلات السورية ٢١٧

فكر الدكتور كامل عياد
ومبادؤه وأخلاقه

د. فاخر عاقل

عرفت الدكتور كامل عياد ، عام ١٩٤٢ واستمرت صداقتي معه حتى وافته المنية بلا انقطاع ، وكنت على أطيب الصلات معه كما كنت أكن له محبة عظيمة واحتراما بالغا لما تميز به من صفات عالية وخلق عظيم .

لقد كان كامل عياد عالما كبيرا يتميز بالموسوعية فقد كان يهتم بالفلسفة والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والتربية ولقد كتب فيها جميعا وألف وحاضر ونشر .

ولقد كان كامل عياد متقفا من الطراز الاول يحيط بمعظم ميادين الثقافة من علمية الى تاريخية الى أدبية الى فنية وكان رحمه الله كثير القراءة ، متنوعها ، وكان خصب الانتاج .

وكان يتمتع بفكر علمي موضوعي عال يجيد التحليل والتركيب ويجول جولات موفقة في ميدان الفلسفة والتاريخ والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع والتربية

وكان رحمه الله متواضعا جم الحياء حلو النكتة واسع الثقافة طيب الحديث .

انه لم يكن يكتب علي كتبه " تأليف كامل عياد " بل كان يكتب " وضع واقتباس كامل عياد ".

لقد كان رحمه الله يتقن عددا كبيرا من اللغات الحية والقديمة ويقرأ فيها من مثل الالمانية والفرنسية والانكليزية والفارسية واليونانية .

لقد نشر مع زميله وصديقه المرحوم جميل صليبا كتب التراث الفلسفي العربي وحققها من مثل كتب ابن سينا وابن الطفيل وابن رشد وغيرهم ، كما الف معه في المنطق وانفرد عنه بكتابه الشهير (علم الاخلاق) .

والى (علم الاخلاق) هذا سأرجع بكم لاستشفاف اراء كامل عياد ونظراته ومبادئه ومواقفه في مختلف ميادين الفلسفة والاقتصاد والتربية وسواها .

ومن المؤسف ان الدكتور عياد لم يكمل كتابه هذا ومع ذلك فقد كتب فيه / ٤٨٨ / صفحة من القطع المتوسط .

يتحدث الدكتور عياد عن (الوجدان) ويقصد به (الضمير الاخلاقي فيقول : الوجدان (١)

ولاجل ان نقدر بالضبط ما هي طبيعة الوجدان يجدر بنا ان نرجع الى المنبع الاصلي له ونقصد بذلك الشعور بالحياة لان الوجدان في الحقيقة ، ليس سوى صورة مركبة سامية لهذا الشعور .

اننا جميعا لا نخلو من هذا الشعور العفوي المباشر بشخصيتنا وبقائنا رغم ماهنالك من اختلاف في الوضوح حسب درجة الكمال .

الشعور بالحياة اولا هو الشعور بوجودنا في ذاتنا ولذاتنا وبالتمايز عن بقية الكائنات ، وباستمرار الماضي في الحاضر واتجاه الحاضر الى المستقبل مع بذل الجهود لتحقيق هذا المستقبل ثم ان الشعور بالمستقبل معناه ثانيا السعي الى السمو و ادراك الحاجات والميول التي تدفعنا في نفس الوقت الى الخروج من أنانيتنا وبلوغ حياة اعلى تربطنا مع ابناء جنسنا ونشاركهم فيها الالام والمسرات لنعيش حياة اكثر ازدهارا واوسع نطاقا.

الحياة ليست ممكنة الا بالوصول الى التوازن والانسجام بين العناصر التي يتألف منها كياننا وتأمين الموالفة المستمرة بين وجودنا المادي والمعنوي .

ويتحدث عن الفضيلة (٣) فيقول :

ان الفضيلة معرفة وارادة وعاطفة ، وهذه العناصر الثلاثة لا يمكن فصل احدها عن الاخر، كما في الوجدان ايضا ، فهي تؤلف وحدة متماسكة : لذلك فان المعرفة وحدها دون الارادة لا فائدة منها ، والارادة بدورها تحتاج الى المعرفة التي تنير سبيلها والى العاطفة التي تمنحها القوة . اما العاطفة بمفردها فهي عمياء مضطربة لا نستطيع ان نثق بها ونطمئن اليها ، الا اذا كانت تحت رقابة العقل ونالت موافقة الارادة .

اما عن الواجب :(٤) فيقول :

الواجب كقانون اخلاقي يمتاز على بقية القوانين بماله من الصفات الخاصة ، ولا يمكن ان نجرد الواجب من مفهوم الالزام الذي هونتيجة لشعورنا بان هذا القانون خارج عنا وكامن فينا بنفس الوقت ، ان هذا الشعور المركب ناشئ عن (الاثنينية) في طبيعتنا فاننا نشعر من جهة بدافع وشوق الى حياة اخلاقية كاملة ، ومن جهة ثانية بمقاومة وامتناع .

ان التجربة تكشف عن وجود هذا التناقض والتضارب في أنفسنا ، وتبرهن لنا على انه في قدرتنا اشخصية ان نتغلب على هذه الحالة او ان نستسلم لها .

اما عن المسؤولية والجزاء (١) فيقول :

المسؤولية كانت في بادئ الامر مشتركة ومادية ثم تطورت حتى انقلبت فردية ومعنوية فأصبحت بذلك مفهوما اخلاقيا مستندا الى المبادئ الفلسفية في الحرية وهوية الشخصية واستقلالها وكرامتها الانسانية ..

ان الشخص الذي له وجدان حساس لا بد ان يقبل بالمسؤولية الاخلاقية عن اعماله احتراما لنفسه وكرامته كما يجب ان يرضى بالمسؤولية الاجتماعية ويعاقب على اعماله في سبيل مصلحة جماعته . وبقبولنا لهذه المسؤولية الاجتماعية عن اختيار نجعل لها هي ايضا قيمة اخلاقية وبذلك لا نعود ننظر اليها كضرورة مؤسفة .

وعن الحق والعدل (٢) فيقول :
نستطيع تعريف الحق بانه مجموعة القواعد التي تنظم علاقات الافراد الذي يعيشون في المجتمع وهو بهذا المعنى حادث اجتماعي .. اما من الوجهة الشخصية فان الافراد يشعرون بفكرة الحق كقوة باطنية تدفعهم الى المطالبة بما يستحقونه ويتفق مع العدل ، وبهذا المعنى فان الحق يصبح مثلا أعلى ومبدأ اخلاقيا .
وكذلك العدل يمكن ان ننظر اليه من الوجهة الموضوعية فنعرفه حينئذ بانه المبدأ الاسمى الذي يبين لنا كيف يجب ان تكون علاقات الافراد الذين يعيشون في المجتمع ويحدد لكل واحد ما يستحقه وما ينبغي ان يعمله ليحافظ على ما يستحقه غيره ..
أما من الوجهة الشخصية فان العدل فضيلة اخلاقية يتصف بها الافراد وتدفعهم الى العمل بما يتطلبه مبدأ العدل الموضوعي ويمكن تعريفه بانه الارادة القطعية في اعطاء كل أحد ما يستحقه .
ويقول عن الشفقة والاحسان (٦) :
الشفقة يمكن ان تصبح عاطفة سامية نبيلة تقرب بين نفوس البشر عندما يبلغ المجتمع درجة عالية من التطور .. ان الشفقة لا تعود حينئذ امتيازا خاصا بالاغنياء واصحاب الجاه وذوي الحظوظ السعيدة بل تصبح عاطفة انسانية خالصة يشترك فيها القوي والضعيف العظيم والحقير ، الغني والفقير على السواء وعندئذ لا تتعارض الشفقة مع العدل بل تصبح عاملا فعالا ينير سبيل العقل لتحقيق المثل الاعلى للعدل ..
وفي ص / ٢٣٥ / يقول :
.. وآحيانا انما نتصدق للتظاهر والمباهاة كتساب سمعة الاحسان .. وهناك اشخاص عصريون يلجأون الى الصحف لتعلن عن تبرعاتهم للاعمال الخيرية او اشتراكهم في الحفلات التي تقام لهذه الغاية .. وهناك بعض الاغنياء الاميريكيين الذين يدفعون مبلغ كبيرة من الصدقة لتخفيف البؤس العام خوفا من ثورات اجتماعية تذهب بثرواتهم .
كذلك الامر مع بعض المتدينين الذين يعتبرون الصدقة قرضا يعيده الله اليهم مع الفائدة المركبة ولكن ليس في الاخرة بل في الدنيا وفي القريب العاجل .
ومن جهة اخرى فان الصدقة تشين الشخص الذي تعطى اليه فهو يعتاد ان يعيش من رحمة الاخرين .
وفي ص ٢٣٦ يقول :
من المعلوم ان هناك أفرادا قد جعلوا التسول مهنة خاصة وفنا دقيقا واصبحوا يستفيدون ببراعة من رقة العواطف اوالغرور عند البشر .. وهم يصبحون كسالى . . ويقول (شارل جيد) ان الصدقة مضرة قبل كل شيء بالبائسين الذين لم يفقدوا الشعور بكرامتهم الشخصية . ..
ويستدرك فيقول :
.. ان هذه الانتقادات لا تصيب الشفقة الحقيقية والاحسان بالمعنى الصحيح .
ويقول عياد عن التضامن والتعاون، (١) :
اذا كانت فكرة التضامن ليست في ذاتها سوى مفهوم علمي لا صبغة اخلاقية له الا انها يمكن ان تصبح من اهم الشروط لحياة اجتماعية مؤسسة على الاخلاق وذلك على شرط ان نستند الى مبدأ احترام الكرامة الانسانية والى

عاطفة حب الاخرين او على الاقل الى مبدأ المنفعة العامة بالمعنى الصحيح ..

ويمكن ان تصبح عاملا مؤثرا في التقدم الاخلاقي لانها تخلق جوا اجتماعيا تتلاءم فيه واجبات الشفقة وواجبات العدالة .

أما عن الانتحار ( ) فيقول :

التضحية بالنفس ليست انتحارا بالمرة بل انها واجب تفرضه الاخلاق .

وكذلك الموت في سبيل الاخرين ليس انتحارا بل تضحية بالنفس .

والذي ينتحر انما يفر من الواجبات التي تنتظره في الحياة وهو انما يقضي كما يقول (كانت) على عامل اخلاقي اي على شخص يمكن ان يعمل بما تفرضه الاخلاق فهو اذن يقضي على الاخلاق ذاتها .. ولا شك في ان الذي يبقى في الحياة يتحمل الالام أفضل واكبرمزية من الذي يتخاذل تجاه الالام ويهرب منها .

ويعدد عياد واجبات العدل العام ( ) فيذكر منها :

١ ــ احترام كرامة الاخرين .
٢ ــ احترام حياة الاخرين .
٣ ــ احترام حرية الاخرين .

وفي ص / ٣٢٧ / يعدد واجبات العدل التبادلي فيقول انها :

١ ــ واجب التعاون .
٢ ــ واجب الصدق
٣ ــ واجب الصراحة .
٤ ــ واجب النزاهة .

ويتكلم الدكتور عياد عن حقوق المرأة في ص ٣٦٥ ــ ٣٦٨ :

تقوم الاسرة الحديثة على مبدأ احترام الحرية الشخصية والكرامة الانسانية والمساواة بين الرجل والمرأة .

.. وفي الحقيقة فان هناك فروقا بين الرجل والمرأة ويظهر بان الطبيعة قد خلقت كل واحد منهما لوظيفة خاصة ، ولكن الاختلاف في الوظيفة لا يبرر عدم المساواة في الكرامة الشخصية وفي الحقوق ، ولا شك في ان المساواة في الكرامة والحقوق يجب ان تكون تامة بين الرجل والمرأة ضمن الاسرة .

وتحت عنوان (الاسرة مدرسة للفضيلة) يقول عياد في ص ٣٧٠ :

ان الاسرة عندما تكون مؤسسة على قواعد صحيحة ومبادىء سليمة لا يمكن ان تضاهيها اية بيئة اجتماعية اخرى في تعليم الانسان الفضائل الاجتماعية والاخلاقية ..

ان حياة الاسرة هي التي تقلب الغرائز الحيوانية الى عواطف انسانية فان الغريزة الجنسية تنقلب في الاسرة الى حب زوجي وتصبح بذلك نقية طاهرة بعيدة عن الاهواء الجامحة كما ان الانسانية الاصلية تتطور الى غيرية ، ولا يدرك الانسان معنى الحرية الحقيقية الاضمن الاسرة حيث يشعر بأن ارادته لها حدود لا يجوز الاعتداء عليها وان هناك مسؤوليات يجب عليه تحملها .. وفي الاسرة يتجلى الحب الحقيقي البعيد عن الحساب والمنفعة وينشأ الاندفاع والحماسة للقيام بالواجب .

ونستطيع القول بان الشخص الذي يختار العزوبية ربما يتخلص بذلك من بعض الهموم والمشاكل التي تخلقها الحياة العائلية .. ولكنه يحكم على نفسه بالحرمان من كثير من العواطف التي تعبر عن اعمق واسمى ما تشعر به النفس الانسانية كالحب الزوجي والحب الابوي وبصورة

خاصة عاطفة الامومة ، ويتطرق الدكتور عياد الى مشكلة التناسل

( ) فيقول :
ان مشكلة التناسل لا يمكن حلها الا اذا نظرنا اليها في نفس الوقت من الوجهة الاجتماعية ومن الوجهة الاخلاقية ، فان اكثار النسل واجب مدني دون شك ولكن جميع التدابير الاجتماعية لا تفيد شيئا اذا لم يكن لدى الافراد شعور بالواجب الاخلاقي .. والاشخاص الذين يقومون على تأسيس اسرة لاجل التناسل يبرهنون بذلك على ثقتهم بأنفسهم وعلى أنهم يشعرون بدوافع الى الخلود

عن طريق اولادهم ، فان الابوة والامومة تفيد ان السمو فوق الفردية والانانية ..

ولذلك فان كل من يشعر بالكرامة الانسانية لا بد ان يعتبر التناسل ليس واجبا مدنيا واخلاقيا فحسب بل يرى فيه ايضا سببا اخر يربطه بالحياة ويدفعه الى الرغبة فيها والتمسك بها .

ويشير الى العلاقة بين الاخلاق والحياة الاقتصادية فيقول ،
في ص / ٣٨٩ /
ان فعالية البشر الاقتصادية هي الاساس لحياتهم الاجتماعية ، واذا كانت قيمة الانسان انما تتوقف قبل كل شيء على حياته النفسية - الباطنية وعلى مثله العليا واعماله الاخلاقية فهو من جهة اخرى لا يستطيع الوصول الى تنمية فكرة وتقوية ارادته وتهذيب عواطفه وتحقيق اهدافه الاخلاقية الا اذا توفرت له قبل كل ذلك الاسباب المادية التي تساعده على حفظ بقائه وتأمين ما يحتاج اليه من الرفاهية والراحة ..

ونستطيع القول بان جميع المسائل الاخلاقية مرتبطة بالعوامل الاقتصادية ، وفي ص / ٣٩٤/ يتحدث عن العمل فيرى ان :
.. العمل .. هو العامل الاساسي في خلق الحضارة البشرية .. والعمل هو الجهد الذي يبذله الانسان لانتاج شيء مفيد يساعد على تطمين حاجاته او حاجات غيره ..
وفي ص / ٤١٥ /
.. في العمل تتجلى شخصية الانسان فهو يقتضي استخدام أسمى المواهب التي يتصف بها البشر .. وهو أحسن وسيلة للتعبير عن جوهر شخصيتنا واظهار سطوتنا على عناصر الطبيعة واستثمارها لمصلحة الانسان ، وفي العمل تظهر عبقرية الانسان وقدرته على الابداع وللعمل كرامة عظيمة لانه هو الذي يضمن لصاحبه استقلاله ويساعده على تأمين حاجاته بنفسه حتى لا يكون عالة على غيره .
وفي ص / ٤١٦ /
وتقضي علينا كرامة العمل ان لا ننظر اليه كمجرد بضاعة تباع وتشرى وان لا نفرض على الانسان ان يعمل ضمن شروط غير عادلة تحكم

عليه بالبؤس والحرمان ..
.. ولا يمكن ان تكون للعمل كرامة اذا لم يتمتع بالحرية .
هذه لقطات سريعة من اراء عياد ونظراته في كثير من المشكلات الاخلاقية والاقتصادية والاجتماعية تظهر مدى نبل الرجل واخلاقية وصواب نظرته ودقة ارائه وشرف مواقفه كما تظهر لدى تقدمه على زمانه ومكانه .
رحمه الله رحمة واسعة وعوض عنه الوطن والامة والشعب .

فاخر عاقل

دمعة على أستاذي كامل عيّاد

بقلم: عبد المعين الملوحي

أستاذي ..
أشهد ، وأنا أودع السبعينات من عمري و اقرع باب الثمانينات هذا العام ، أنني :
كنت جاهلا فعلمتني ،
كنت متعصبا فحررتني ،
كنت رجعيا فجعلتني تقدميا .
كنت أعطف على النازية كرها للاستعمار فجعلتني أكره الاستعمار والنازية معا .
كنت أقف موقفا محايدا من الاشتراكية فجعلتني جنديا من جنود الاشتراكية .
كنت آلة صماء فتحولت بفضلك الى انسان حي ..
لم أحضر جنازتك ، وكان حضورها فرضا علي ، لأني لم أسمع بموتك الا بعد يومين من موتك ، اولا ولاني غير قادرعلى الاشتراك في الجنازة بسبب مرضي وشللي ثانيا فهل انت قابل عذري ؟
ولكني شاركت في التعزية بوفاتك يا أستاذي الجليل ..
ذهبت الى المهاجرين وحملتني عصاي الى الطابق الثالث الذي فيه بيتك ، وفوجئت بالبيت وأثاثه :
بيت متواضع شديد التواضع ..
أثاث قديم يكاد يكون مهترئا ..
سجادة عتيقة كادت تمحى الوانها ويذهب صوفها .
اذن فهكذا كنت تعيش يا استاذي .
اذن فقد دفعت ضريبة شممك واباءك وحريتك ..
ما أزال أتذكرك يا استاذي في دار المعلمين الابتدائية و دار المعلمين العليا ، وكنت فيهما طالبا :

ما أظن ان واحدا في العالم العربي كله قد سبقك الى الدفاع عن الحرية والديمقراطية والتبشير بالاشتراكية ولم تكن دعوتك فجة ولا دفاعك طائشا ولكن الدعوة كانت في رزانة ورجاحة عقل ، والدفاع كان عن ايمان عميق وشعور فياض .

كنا نستمع الى دروسك وكأنا في معبد ، في محراب من محاريب الفكر وكنا نشرب كلماتك في حب ووله بلغا حد العبادة .

وأعجب ما كنت ، اذا كنت تذكر ما كنت ، عندما تمسح جبينك بيدك او بمنديلك ثم تتدفق في الحديث ، كما يتدفق الشلال الهادر ، وكان وراء هذا الحديث ايمان عميق

بالانسان وادراك كامل لتطوره خلال العصور وفهم واسع لمراحل سعي الانسان في دأب ودون كلل لتحقيق انسانيته ، رغم ما تعرض له من ضروب الذل والطغيان ومن الحروب ومن السجون ومن المعتقلات ..
كنا في الحرب العالمية الثانية ، وكانت جيوش النازية تحتل اوروبا قطرا بعد قطر ، وتسحق شعبا بعد شعب ، وكنت مؤمنا باندحارها وانتصار الديمقراطية وتتحدث منطلقا من هذا الايمان ، لكانك كنت ترى سلفا في منبرك مصرع النازية وظفر الحرية .

وأذكر ولا أنسى انك كنت حرا في نظرتك الى المذاهب الاجتماعية والدينية والسياسية تعرض في جرأتك المذهلة محاسن هذا المذهب ومساوئه ثم تنتقل الى مذهب اخر فتعرض محاسنه ومساوئه .
وأذكر ولا أنسى انك كنت اذا اشرت الى مغمز في مذهب وحاول اصحاب مذهب اخر انتهاز الفرصة للطعن فيه أسرعت في الاشارة الى ما في مذهبهم من مغامز فجلسوا نادمين.
وهكذا كنت تعلمنا حرية التفكير بسلوكك ونموذجك ..

وأشهد يا أستاذي انك كنت ساذجا بسيطا بعيدا عن مظاهر العظمة الجوفاء والركض وراء المناصب، كنت متميزا بكرامتك وعلمك ونزاهتك ، وأشهد أن بعض الشباب من الاحرار اليساريين أرادوا - اقامة حفلة تكريم لك فرفضت وطلبوا مني ان أراك وان أقنعك بالقبول ، ورأيتك واقفا تنتظر (باص) المهاجرين ، فدنوت منك أسألك القبول بحفلة التكريم ، فنظرت الي في دهشة واستغراب ثم في استنكار وقلت لي في هدوء :

أتريدني مني يا عبد المعين ان أقبل حفلة تكريم ، والوطن العربي في مثل هذا التمزق والشعب العربي في مثل هذه النكبات وخجلت وودعتك وندمت لأني قبلت اقامة حفل تكريم لي قبل ان استشيرك .. يا استاذي ..

ليتني أستطيع ان أضع لك ملفا كما وضعت لصديقك الدكتور كاظم الداغستاني وشريكك في مجلة الثقافة ، ملفا ، فلعلي أقوم بشيء من واجبي نحوك ..
ويؤسفني يا استاذي انك مت ولم تذع نبأ وفاتك جريدة ولا اذاعة ، مسموعة ولا اذاعة مرئية ، كأنك لم تكن هذا الصرح الشامخ الذي انهار بعد ان ترك وراءه عددا غير قليل من قلاع الحرية والاشتراكية في العالم العربي كله على العموم وفي سورية العربية على الخصوص .
وقد شعر بمثل هذا الاسف صديقي الاستاذ مدحة عكاش فكتب في مجلته

" الثقافة " الراقية :
" واذا كنا نأسف لشيء فاننا نأسف اشد الاسف لان الدكتور كامل عياد رحل دون ان يشعر او يدري احد برحيله ولان محرري الاقسام الثقافية " الاعلام " في بعض الصحف نسوا او تناسوا نشر خبر رحيل هذا العالم الذي قدم الكثير لامته ووطنه في دنيا العلم والفكر والفلسفة " .
مجلة " الثقافة " الاسبوعية العدد ٤٨ السنة ٢٨ .

يا استاذي عياد ..
لا يحزنك ذلك فقد بقي في تلامذتك كثيرون يحافظون على عهدك

وتعاليمك ، منهم تقدميون متحررون يسيرون في طريق الحرية والاشتراكية رغم كلما يلاقون من عثرات .
يا استاذي عياد ..
في عام ١٩٤٥ سقط اخ لي حر في مصر ، في عهد اسماعيل صدقي فقلت في رثائه :
وموتك لم يعلم به غير قلة
بلى ان تاريخ النضال به أدرى ..
ولقد كنت ، والله يشهد ، علما من اعلام النضال في هذا الوطن العزيز وقائدا كبيرا من قادة الحرية ..
ورجائي من أبنائنا الصغار ، ان يذكروا آباءهم الكبار ..
ومن تلامذتنا الجدد البر بأساتذتنا القدماء ..
وقديما قال الشاعر الداغستاني الشعبي ابو طالب :
" اذا اطلقت نار مسدسك على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك
" داغستان بلدي " لرسول حمزاتوف ص ٥ .

رحمك الله يا استاذي ..
فلست املك لك وقد رحلت عنا الا ان اسأل الله الرحمة لك والرفق بك .
ولعل هذه الدمعة تنوب مناب حفنة من التراب التي كنت اريد ان القيها في قبرك ، وهي آخر عهد الاحياء بالاموات .. فمنعني القاءها مرضي وشللي ..

تلميذك
عبد المعين الملوحي

كلمة وفاء

رئيسة تحرير المجلة: ريم كرد علي الغظمة

انطفأ سراج بانتهاء الزيت بهدوء وسكينة .. وانتقل استاذنا المربي الكبير والدكتور كامل عياد مطمئنا وبهدوء الى جوار ربه كما عاش حياته كلها هادئا ومطمئنا ..

اسمحوا لي ان اعبر عن اسى جمعية الندوة الثقافية النسائية لهذا الحدث الكبير ، سيما وأن الدكتور كامل عياد كان استاذا لغالبية اسرتها ، كما كانت له اليد الطولى في تأسيسها مع غيره من كبار اساتذتها آنذاك ، الاديب اديب التقي البغدادي ، الدكتور الاستاذ جميل صليبا ، الاستاذ الدكتور خالد شاتيلا والدكتور نظيم الموصلي وغيرهم . فقد كان رحمه الله مؤمنا ، وعن يقين ، بان المرأة ، انسان كامل الحقوق والواجبات وأن المعيار الحقيقي لرقي المجتمعات ، هو وضع المرأة ، عماد الاسرة واشراقة الغد ، لقد كان يكرر دائما بان الافراد والمجتمعات لا تحررها رحمة الظالمين ولا شفقة المضطهدين .. الحقوق تؤخذ عنوة وعن استحقاق ، وسلاح العلم والوعي والمعرفة هو الطريق الى التحرر من عبودية القرون المظلمة ، هكذا ولدت الندوة الثقافية النسائية في عام ١٩٤٢ ثمرة للرؤيا الصحيحة بأن الانسان هو الهدف وهو الوسيلة في كفاح المرأة والرجل معا للتحرر والانطلاق .

رحم الله رجلا اذا ذكر اسمه بعد وفاته كان موضع احترام وتقدير ، هنيئا لمن جاء الى هذه الدنيا ورحل عنها فترك بصمات لا تمحى ، يكفي لمن كان استاذا في الجامعة على المدى الطويل ، يكفي لمن ترك مجموعة قيمة من الكتب الفلسفية والتربوية يكفي لمن نال شرف العضوية في مجمع اللغة العربية ، يكفي لمن أنشأ اجيالا واجيالا من المتعلمين المثقفين المحبين له والمقدرين يكفي لمن يكرمه العلماء والادباء والمثقفون جميعا ، يكفي لمن كان له سلوك واخلاق الدكتور كامل عياد الذي التزم في حياته بكل ما كان يؤمن به ، يسير في الظل بعيدا عن الانوار ، يتكلم هامسا بالحجة مخاطبا العقل دون العواطف والنزوات ، يحب الاخرين ولا يذكرهم الا بالخير ويحاول دائما ان يبرر الهفوات ، الناس جميعا اخوة له وقد أدرك ان الحياة أضيق من ان تتسع للحقد والنقمة والحسد فلم يترك للمشاعر الشريرة سبيلا الى قلبه الكبير ، يكفيه كل ذلك لأن يترك بصمات نيرة لن تزول ..

سيداتي وسادتي ، لا أخفيكم ان تكليف الزوجة المفجوعة ، لي، بكلمة أسرة الفقيد من آل عياد وآل الاوورفلي قد اربكتني بعض الشيء للوهلة الاولى ، لكنني اعتبرته فيما بعد تكريما لجمعية الندوة الثقافية ، النسائية ، التي أمثلها ، ولي شخصيا ، او ليست الاخت بديعة رفيقة عمر مديد او ليس الانسان الذي افتقدناه هو في مقام الاخ الكبير ؟

فبلسانك ايتها الاخت العزيزة بديعة وبلسان اخي المرحوم الكريمين ، وبلسان الاسرتين عامة ، نشكر جميع من جاءوا للمشاركة بهذا الحفل التأبيني اللائق ، سواء بحضورهم او بكلماتهم المعبرة افرادا او مؤسسات ، ذوي قربى او اصدقاء .

بالشكر لأسرة جامعة دمشق التي رعت هذا الحفل ، ولرئيسها الاستاذ الدكتور زياد الشويكي والشكر لاسرة كلية التربية ولعميدها الاستاذ الدكتور علي منصور .

والشكر لاسرة مجمع اللغة العربية بدمشق وللاستاذ الدكتور شاكر الفحام نائب رئيس المجمع .
والشكر للاستاذ الدكتور فاخر عاقل المربي الكبير واوفى صديق للفقيد واوفى زميل .
والشكر للمحامي الاستاذ نجاة قصاب حسن الذي عبر احسن تعبير عن مشاعر تلاميذ الفقيد كما عبرت أنا عن مشاعر تلميذاته وعن اسرة الجمعية التي كانت له اليد الطولى في تأسيسها .
والشكر لكم جميعا ..

طوبى للصادقين المخلصين الذين عبروا جسر الحياة خفاقا كالملائكة لا يحتاج المتخلفون في رثائهم الى ان يتملقوا أهلهم وذويهم كذبا ونفاقا ..

عزاء وصبرا للزوجة المفجوعة المربية بديعة اورفلي والى الاسرتين الكريمتين عياد والاورفلي ..
وعزاء لنا جميعا ..

تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يحزن الرب ، ولولا ان الموت وعد صادق وموعد جامع فان الاخير منا يتبع الاول لوجدنا عليك وجدا شديدا ، ايها الانسان الكامل كامل عياد رحمك الله وكم كان لك من اسمك نصيب .
انا لله وانا اليه راجعون ..

ريمة كرد علي العظمة

أستاذنا كامل عيّاد

نجاة قصاب حسن

يحب التلاميذ والطلاب ان يداعبوا اساتذتهم . والأذكياء (الشياطين) منهم يجدون لكل استاذ صفة يغلب أن تكون كاريكاتورية وتشكل نوعا من الرد على السلطة التي يملكها الاستاذ على تلاميذه وهي سلطة كانت في الماضي كبيرة مطلقة . وإنني لاذكر اننا في مدرسة التجهيز في الثلاثينات كرهنا معلماً كان عين السلطة الفرنسية والمخبر الذي يشي بالاساتذة الوطنيين والتلاميذ . فاطلق الجميع عليه لقب (قصرمل) وهي تسمية تعطى للرماد الذي يتبقى بعد حرق الزبل في قميم الحمامات . وكانت تسمية موفقة لان وجهه الكريه كان اغبر ازرق داكنا . وقد غلبت التسمية على الإسم الحقيقي حتى لم يعد يذكره إلا الاقلون .

وحين انتقلت إلى دار المعلمين وكان صفنا فيه من الطلبة سامي الدروبي وعطاالله مفامس وحقي المحتسب رحمهم الله . وشاكر مصطفى وعادل سودان ومحمود سلامة وعبد السلام كنعان وانور البرازي وعزالدين المناقلي ويحيى الترجمان وسامي المارتيني وغيرهم . مد الله في عمرهم . لم نسلم ونحن طلبة معلمون من عدوى معابثة الطالب لإستاذه . فنظمنا قصيدة طويلة من مئتي بيت اسمينا فيها كل استاذ لنا بتسمية كاريكاتورية مناسبة . إلا واحداً ...

كان هذا الواحد كامل عياد . وكانت القصيدة تبدأ هكذا :

الناس عدلاً إذ تذم وتمدح
إن الإناء بما تضمن ينضح
دار المعلم نعم ما خلقت له
لكنما التعليم فيها «افكح»
ما غير عياد بها متثقف
فيظل يهدم جهلنا ويصحح ..

والحقيقة إن الدكتور كامل عياد الذي فقدناه هذا الاسبوع كان نسيج وحده في العلم وفي تقريب العلم إلى الاذهان باسلوب محبب رشيق بسيط بلا كلفة . فهو عالم ومعلم ولاتجتمع الصفتان دائماً .

ولد كامل عياد في عام الف وتسعمائة وهو ليبي الأصل تعلم أولاً في القدس في مدرسة دينية ولبس العمامة . ثم درس في ثانوية حلب ومن بعدها أرسل إلى المانيا ليدرس العلوم فانقلب إلى الفلسفة والتاريخ والتربية . وكانت اطروحة الدكتوراه التي تقدم بها لنيل شهادة العالمية تدور حول مقدمة ابن خلدون وماتزال هذه الإطروحة من المراجع التي

يعتمدها المستشرقون والدارسون في المانيا والعالم حين ينكبون على دراسة ابن خلدون مؤرخاً . ثم عاد إلى سورية في منتصف العشرينات وتولى التدريس في تجهيز دمشق . وحدث مرة أن جاء المستشار الفرنسي «كوليه» يطلب من الأساتذة مجتمعين أن يعطوا أسماء الطلبة (المشاغبين) أي الوطنيين ، فانبرى له كامل عياد يقول اننا هنا معلمون لاجواسيس لدى السلطة ولذلك نرفض الجواب ، وسار معه الجميع في هذا الاتجاه .

وكان يلقى مضايقات عديدة من السلطة ولكنه كان يمضي . وقد أسس مع كاظم الداغستاني وجميل صليبا وخليل مردم مجلة الثقافة الراقية . ثم أسس مجلة المعرفة التي كانت أول من حمل نفحة الفكر اليساري إلى شباب البلاد . ثم قذفه المد إلى العراق حيث تولى التدريس فيها ولاسيما في دار المعلمين وكان من الرواد في الفكر التقدمي .

ولما أخرجته السلطة من العراق عاد إلى سورية مدرساً وساهم مع ساطع الحصري في وضع المناهج ، ثم تقاعد وتعاقدت معه جامعة عمّان للتدريس ، كما ألقى دروساً ومحاضرات في القاهرة .

انه عربي متميز في هذه الجولات الواسعة في ميدان التعليم في عديد من البلاد العربية ، وواحد من رواد الفكر التقدمي . وشجاع من الشجعان الذين بشروا بالصداقة مع الاتحاد السوفياتي حتى في أيام الحرب العالمية الثانية حين كانت جحافل الالمان تتقدم .

وقد نعاه مجمع اللغة العربية الذي كان من أعضائه ، وشيعه رفاقه وتلامذته . ولكن نباهة ذكره تبدأ الآن . فالعادة أن الأحياء قلما يحظون بالعناية والتكريم في حياتهم ، وكامل عياد أستاذنا الأنيس الحبيب كان منقطعاً عن الناس إلا زيارات قليلة لزميله ورفيقه الدكتور فاخر عاقل وللمجمع ، ولكن غيابه يفتح الباب عريضاً على دراسة شاملة لانتاجه العلمي والتاريخي ولاسيما مؤلفاته في التاريخ القديم وفي تاريخ اليونان وفي التربية والفلسفة ، فما كان كامل عياد شهاباً مر وانطفأ ولكنه كان ركيزة ضخمة تقوم عليها ثقافة أجيال كاملة من العلماء والمربين ورجال السياسة وحملة الرسالة القومية والانسانية . وأذا كان توفي ولم يعقب ولداً فان انتاجه هو الإرث والبقاء الحقيقيان وفي هذا بداية تكريم حقيقي وواسع لذكراه .

ضوء الوطن

د. ناديا خوست

خرج في جنازة كامل عياد قليل من الناس، مع ان الطقس كان صحوا، ومع ان من علمهم كثرة في اجيال. تذكرته كما رايته اخر مرة، وهو يمشي في الطريق فارعا ومهذبا، نوسع له الدرب في احترام كي يمر. وبدا لي انه يعبر المدينة، وان ملامح جيل ترحل معه.

لو مشى وراء الرجل من جلس اليه في الصف.. او استوقفه ليساله سؤالا، من قرا مقالة في مجلته، او صفحة في ابحاثه، لكان وراءه جمع يضيق به الشارع. الم يحزن اولئك الناس عليه ؟ ام انشغلوا عنه بالهموم المتنوعة، عزفوا عن التعبير، واكتفوا بالحزن عليه في النفس ؟

وقت نرى اخبار المنطقة في خطوط عامة في سياسة واقتصاد، ما اقل ما نقول ونلمس ! لاننا نغفل عن صداها في النفس، ونهمل الاشارات الى الضيق بالمثل، والاستخفاف بالرواد، والدهشة لانسان يحب اخر دون حساب، ولمن يارق من التفكير في الماء والشجر. ولان تلك العواطف كجزر تلطمها الامواج، نقول ستغرق، ونقول صفات لا تورث

وقت توفي كامل عياد، داهمنا شعور بالهرم. لاننا خشينا ان يكون الامس اكثر نضرة من اليوم. وبدا لنا انه اخذ معه زمنا كانت فيه المدرسة مزروعة بشجر الليمون، وكانت فيه الشوارع للمشي، ونوافذ الناس للنظر، والقمر للحفاوة ايام البدر. يطول فيه العمر، رغم ان الادوية لم تكن متداولة، وتزيد فيه من النهار فسحة. فكيف تبددت هيبة القمر، وقدرة القلب على الخفقان، وانتباه الانسان الى عصفور يمر، وستيتية عششت في سقف العمر؟ ما هو هدف الحضارة والاقتصاد اذا لم يكن الوقت للانسان، واحترام المثل والعواطف الرقيقة التي تؤكد الاعتراف بالجميل، والخروج في ماتم رجل عزيز...

اغمض كامل عياد عينيه جليلا، لم يشوه سمعته بمقال، ولم ينحن ببحث او سلوك. قصر فقط في حقه في ان يجمع دراساته وابحاثه في كتاب ويظل موجودا في المكتبات. لكن من يحترمه قصر، لان جنازته لم تكن حشدا مهيبا يعبر عن احترام الفكر المتقدم والسلوك النبيل. ويؤكد للاحياء ان الخلود للرواد .

تبينا بموت كامل عياد ان اولادنا لا يعرفون الرجل. كيف، ولماذا ؟ ذنب من ذلك ؟ لم نعود اولادنا ان العلاقة بالحضارة والتراث ليست علاقة مجردة، بل التعبير الحي بالسلوك، باللهفة، بممارسة الحزن، وبالحفاوة . لم نشر نحن الاباء امامهم الى اعتزاز الشعوب بارثها، ولم نبين انه السند في يوم الشدة. يتسابق الفرنسيون في ضم اراغون وبيكاسو الى التراث الوطني ، وينسبون بلادهم اليهما. وتعلم الكتب السوفييتية الطفل ان لومونوسوف كان عالما موسوعيا. وتستعيد بلغاريا بتبرعات الاطفال، باخرة سافر عليها شاعر،مهاجرا ، من الظلم. الم نلمح تلك الدروس، فنضم نحن ايضا الى الصدر الاعزاء علينا ؟

كان كامل عياد يعلم في حياته الاستنتاج من المقدمات. وقد قام بذلك ايضا في الممات. فاوصلتنا جنازته الى التساؤل عما حدث في النفس والهمة كي يكون مارايناه ، فلا تجمع صرخة، الناس في موكب الرجل الكبير.

تذكرت تشييعا صادفته مرة في جبال القفقاس، كان الرجل فيه مستلقيا على الاكتاف ووجهه الى السماء، تنهمر عليه الزرقة والوان الاشجار والجبال. كان بلده ينشر عليه ماعنده من الجمال والحب. وكان رجلا عاديا من الرجال

فليتنا نشرنا مثل ذلك الحب لمتنور انشا مجلة ثقافية في الثلاثينات تبدو لنا حتى اليوم معاصرة، عرفته المؤسسات التعليمية مفكرا شاهقا ونشيطا. كان متقدما ، يوم كان التقدم جهدا وتضحية وخطرا وعبئا.

ومحظوظ من يعترف بالرواد، من يقدمهم، ويقدر من نسج الوعي يوم كان طريقه صعبا ! ويحفظ المثل من النسيان، ويقيم حضارة. فيدعم [illegible] الضوء البراق في الوطن !

د. ناديا خوست

فقيد الثقافة والفكر

الدكتور محمد كامل عياد

بقلم: حسان الكاتب

فقدت البلاد في الثاني والعشرين من تشرين الثاني من العام المنصرم ١٩٨٦ ، علما كبيرا من اعلام الفكر والتربية والثقافة في هذا القطر هو المرحوم الاستاذ محمد كامل بن علي الشيخ عياد ، استاذ التربية والتاريخ ، في الجامعة السورية ، حتى العام ١٩٥٨ وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

كان الدكتور عياد من اوائل الذين نالوا درجة الدكتوراه في فلسفة التاريخ من ابناء الوطن العربي في جامعة اجنبية هي جامعة برلين (عام ١٩٢٩) .

برز الدكتور كامل عياد واحدا من اعلام الفكر والادب ، و الثقافة ، في هذا القطر العربي السوري ، حمل القلم اكثر من ستين عاما معلما ومؤلفا ومحاضرا وكاتبا في كل مراحل التعليم من (مكتب عنبر) المدرسة الثانوية الرسمية الوحيدة في دمشق حتى أواخر الثلاثينات من هذا القرن ، وهو الان قصر الثقافة في مدينة دمشق القديمة حتى المدرسة ومجمع اللغة العربية . وفي تلك الجامعة اجتمع في العقد الثالث من القرن العشرين اساتذة اعلام من حملة تراث العربية : عبد القادر المبارك ، وسليم الجندي ومحمد البزم الى رواد المعرفة العلمية الحديثة جودة الهاشمي وكامل نصري وجميل صليبا وجودة الكيال وهاشم الفصيح وعاصم البخاري ، كان كامل عياد من هؤلاء الرواد ، الاوائل في حياتنا التعليمية ومن الذين غرسوا اولى بذور الفكر العلمي النقاد في هذه البلاد .

وصف المرحوم الاستاذ البحاث ظافر القاسمي استاذه الدكتور كامل عياد في كتابه الممتع مكتب عنبر) فقال :

كان الدكتور محمد كامل عياد شخصية فريدة بين الاساتذة الذين عرفتهم ، اخذنا عنه التاريخ

في السنة الاخيرة ، وكان ذلك اول عهده بالتعليم . سبقته شهرة واسعة لانه اول من حاز شهادة الدكتوراه في فلسفة التاريخ من المانيا .. ولم يكن (مكتب عنبر) على ما يظهر المجال المعقول لعلمه وكفايته .. كان ضحوكا حتى حين مهاجمته وقد قربه هذا الطبع من قلوب الطلاب ، حر في آرائه وأفكاره ، لا يبالي تقليدا ولا عرفا .. اولع بعض الطلاب بمناقشته في مواضيع استطرادية ، فكان يرحب بها وربما افحمهم وربما أفحموه ،، فكان لا يبالي الا بحرية البحث ، كان ذلك شيئا جديدا على (مكتب عنبر) غير مألوف ، وذلك من مزاياه التي يجدر تسجيلها بكثير من التقدير " .

ولد الاستاذ الراحل سنة ١٩٠١ م بمدينة طرابلس الغرب ، وغادر ليبيه مع والده واسرته اثر دخول الايطاليين، متوجها الى استانبول سنة ١٩١٢ وهي عاصمة الدولة العثمانية آنذاك ، حيث تلقى التعليم هناك لمدة سنة سافر بعدها الى بورصة حيث تلقى التعليم فيها مدة ثلاث سنوات ، انتقلت الاسرة بعدها الى حلب ، حيث اتم فيها تعليمه الثانوي (١٩٢٠) في عهد الدولة العربية السورية ، ثم عاد الى ليبية التي غادرها مرة اخرى الى اوروبة حتى استقر في برلين ، والتحق بجامعتها وتابع الدراسة فيها حتى تحصيل د رجة الدكتوراه ، في فلسفة التاريخ عام (١٩٢٩)

كان موضوع اطروحته " نظرية ابن خلدون في التاريخ والاجتماع" وهي من الدراسات العلمية الاستكشافية في فكر ابن خلـ وقت لم تكن قد عرفت فيه بعد اهمية هذا المفكر العربي العظيم ،

عاد الدكتور محمد كامل عياد الى دمشق سنة ١٩٣٠ مزودا بالعلم العصري وبأعلى درجة أكاديمية علمية متقنا لعدد من اللغات الحية عدا العربية والتركية ، الالمانية والفرنسية .

عمل الدكتور كامل عياد في بادىء ذي بدء في الصحافة فأخذ ينشر مقالات رائعة احدث دويا فيجريدة الايام ، وهي جريدة الحركة الوطنية الاستقلالية في ذلك الوقت ، واتصل بالاستاذ محمد كرد علي المؤرخ الشهير رئيس المجمع العلمي العربي ، مجمع اللغة العربية آنذاك ، فوعده بتعيينه سكرتيرا للمجمع ، الى ان صدر قرار بتعيينه مدرسا للتاريخ في وزارة المعارف (التربية) وعهد اليه بتدريس التاريخ في ثانوية (مكتب عنبر) عام ١٩٣١ - ١٩٣٢) ثم انتقل مع هيئة التدريس الى المدرسة التجهيزية ، وهي المدرسة الثانوية الرسمية الحديثة التي افتتح التدريس فيها عام ١٩٣٣ ، ليكون الى جانب زميله الدكتور جميل صليبا رائدين كبيرين من رواد الفكر العلمي والتقدمي حتى سقوط الانتداب الفرنسي .

لم يكتف الدكتور عياد بمنبر التدريس لنشر فكره المشبع بالروح العلمية فأصدر مع جميل صليبا وكاظم الداغستاني مجلة الثقافة سنة ١٩٣٣ التي لم تستمر سوى سنة واحدة وصدر منها عشرة اعداد ثم توقفت . لكنه عمل مع عدد من المفكرين على اصدار مجلة الطليعة التي كان لها دور ثقافي كبير قبل الحرب العالمية

الثانية .

كان الدكتور عياد خصما عنيدا للاستعمار والرجعية ويذكر عنه انه عندما حصل الاضراب الخمسيني في دمشق سنة ١٩٣٦،حضر الى الصف فوجد الطلاب على مقاعد الدرس بينما كان الشارع يغلي بمجموع المتظاهرين الذين كانوا يهتفون بسقوط الاحتلال ويرفعون لواء الحرية فقال لهم بتأثر : لماذا انتم غير مضربين ..عليكم المشاركة في هذا الاضراب ، و ان تعبروا عن شعوركم الوطني ضد الاستعمار ..

علم المستشار الفرنسي بموقفه ففصل الاستاذ من عمله .. واضطر الى مغادرة القطر ثم عاد اليه وعين استاذا في دار المعلمين (١٩٤٠ - ١٩٤٤) ثم عضوا في لجنة التربية والتعليم (وهي لجنة البحوث في وزارة المعارف) وذلك بعد عودة الاستاذ ساطع الحصري الى دمشق مستشارا فنيا لوزارة المعارف ، وبقي في عمله هذا حتى عام ١٩٤٦ .

انتقل بعدها الى الجامعة السورية لتدريس التاريخ العربي الاسلامي فيكلية الاداب المستحدثة ولكنه كلف بتدريس تاريخ اليونان في قسم التاريخ ، وبتدريس اصول تدريس التاريخ في المعهد العالي للمعلمين (كلية التربية بعدئذ) واستقر عمله في كلية التربية بين ١٩٥٠ - ١٩٦٠) ولكنه سمرفي التدريس في الجامعة حتى ١٩٦٣)، انتدب بعدها الى جامعة الدول العربية بصفة خبير ثقافي .

درس بعدئذ في الجامعة الاردنية عند تأسيسها وكان فيها من أركان قسم التاريخ بين سنتي (١٩٦٣- ١٩٦٧) .

كان للدكتور كامل عياد تأثير فكري كبير في الجامعة وخارجها ، وكان قريبا من الحركات الفكرية والتيارات الثقافية التقدمية في القطر طوال ثلاثين عاما فيما بين العقدين الرابع والسابع من هذا القرن .

اتصل بعصبة العمل القومي في مرحلة من مراحل نشاطه ولكنه اكثر نحو اليسار وتعبر عن فكره في هذه المرحلة مقالاته في مجلات الطليعة (دمشق) والطريق والثقافة الوطنية (بيروت)، وعند انشاء جمعية الصداقة العربية - السوفياتية - بعد الجلاء ونيل البلاد استقلالها انتخب رئيسا للجمعية عام ١٩٤٨ ، لكنه استقال بعد ذلك .

كان الدكتور عياد معطاء انتشرت مقالاته في عدد من الصحف والمجلات منها مجلات المجمع العلمي العربي بدمشق والنقاد والمعلم الجديد والمعلمون والمعلمات ، والمعلم العربي ، والمعرفة ، ودراسات تاريخية .

انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٥٨ ، واسهم في تحرير الموسوعة الفلسطينية وزار العديد من الدول العربية والاجنبية منها :

النمسا وفرنسة وسويسرة وايطالية وبولونية وتشيكوسلوفاكية ورومانية وبلغارية والصين واليابان وتركية والاتحاد السوفياتي ٠

أهم مؤلفاته :

في علم الاخلاق ، وعلم المنطق

وله دراسات وتحقيقات في الفكر العربي بالاشتراك مع الدكتور جميل صليبا ، عن ابن خلدون والغزالي ، وابن طفيل ٠

وله كتاب في تاريخ اليونان بقي مرجعا بين أيدي الدارسين والطلاب الجامعيين مايزيد على ربع قرن ٠

وله دراسة في الادب المقارن بعنوان : اديب عربي واديب سوفيتي (عمر فاخوري ، ومكسيم غوركي) دمشق ، ١٩٤٦٠

وله دراسة مترجمة عن الرأي العام بالاشتراك مع الدكتور جميل صليبا وهي من منشورات وزارة الثقافة ١٩٦٢

هذه نبذة عن الحياة الحافلة لفقيد الفكر والثقافة المرحوم الدكتور كامل عياد الذي رحل عنا لكننا لن ننسى الرحيل الحزين ٠٠

حسان الكاتب

الدكتور محمد كامل عياد

فضل عفاش

حياته واثاره

علم من اعلام العرب .. وواحد من المتبحرين في علوم التاريخ والفلسفة والاجتماع ومن التراجمة المثقفين .

قضى حياته الطويلة جدا دؤوبا على الدرس والبحث والعلم والعمل حتى غدا مدرسة خرجت العالم والمفكر .. فطلابه بالامس هم اليوم قادة هذا الجيل ..

حياته :

هو محمد كامل بن علي عياد ولد في مدينة طرابلس الغرب بليبيا سنة ١٩٠١م وفيها بدأ يتلقي مبادىء العلوم الاولية .

ولما شارفت سنة ١٩١١ على نهايتها واغار الايطاليون على طرابلس الغرب ، اضطر والده الشيخ (علي عياد) لمغادرة الاراضي الليبية فارا الى عاصمة الدولة العثمانية على ظهر باخرة المانية وعندوصوله عينته الدولة العثمانية حاكما على (مرج عيون) ثم رئيسا لكتاب المحكمة الشرعية في مدينة حلب فيما بعد ،وتقلب الشيخ (علي عياد) في مناصب قضائية كثيرة بعد ان جلا الاتراك عن الاراضي العربية فأصبح فيما بعد عضوا في محكمة التمييز في دمشق .

واخذ الطفل محمد كامل يتابع تلقف العلوم في المدرسة الرشدية في مدينة بورصة بالاناضول ، ثم انتقل في عام ١٩١٤ م الى المدرسة السلطانية في مدينة حلب ، ومنها ارسله والده الى المدرسة الصلاحية التي أنشأها الاتراك في مدينة القدس وظل بها عدة شهور ، وفي اواخر الحرب العالمية الاولى عاد محمد كامل لاتمام دراسته في المدرسة السلطانية في مدينة حلب فتابع دراسة الثانوية ..

وفي سنة ١٩٢١م سافر الى المانيا الغربية ، وبدأ الدراسة في جامعة برلين فدرس فيها علوم الفلسفة وعلم الاجتماع وآداب الشعوب والى جانب دراسته اشتغل بالصحافة فاشترك فيتأسيس مجلة بالعربية اسمها " الحمامة) ، وجريدة بالالمانية تحت اسم (صدى الاسلام) .. وذاق من الغربة واوجاعها .. وعرف فيها غلاوة الوطن .. فكانمحبا لامته ومؤمنا بمستقبلها كما كان مؤمنا بماضيها المشرق الطويل فعاش سنين غربته دأبا واجتهادا حتى حصل على

شهادة الماجستير في الاداب وشهادة الدكتوراه في الفلسفة •

وفي سنة ١٩٣٠ م عاد الى دمشق يحمل في جعبته الكثير لابناء امته ، فكانت دمشق وقتئذ تعيش اوجاع الظلم والاستبداد ..
فعمل فور وصوله دمشق بالصحافة ذاك الوقت بالرغم من انها كانت مراقبة ومقيدة وفي العام ١٩٣٣م عين مدرسا للتاريخ في المدرسة التجهيزية (الثانوية بدمشق) وفي العام ١٩٣٦م سافر الى مدينة بغداد حيث عمل بتدريس " تاريخ العرب والاسلام " في دار المعلمين العالية لمدة ثلاث سنوات ، وفي سنة ١٩٣٩م عاد الى دمشق فتابع التدريس فيها •
وفي سنة ١٩٤٤ عين عضوا في لجنة التربية والتعليم ، ولما تأسست كلية الاداب في جامعة دمشق عين استاذا مساعدا للتاريخ اليوناني وفي العام ١٩٥٠ م انتقل الى كلية التربية استاذا لتاريخ التربية ، كما عمل استاذ للتاريخ في الجامعة الاردنية بين عامي ١٩٦٣، ١٩٦٦م ، وهكذا استهوته مهنة التدريس فعمل لقدسيتها حتى سلخت من عمره ما يقارب ربع قرن من الزمان ، فتخرج على يده جيل مثقف عرف التاريخ والفلسفة والتربية والاداب ، فطلابه بالامس هم اليوم قادة هذا الجيل •
وفي سنة ١٩٥٢م انتدب للعمل في الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية وانتخب في عام ١٩٥٨ عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي بدمشق آنذاك " مجمع اللغة العربية " حاليا ، فبلغ اعلى ما يطمح اليه عالم واديب حتى بلغ الذروة ، تعقد عليه الامال وترنوا اليه الابصار •
كان من اوائل المتحدثين في اذاعتي دمشق وبغداد ، وقد نهض بتبعات في الفكر والخلق في لجان مسؤولة ومجلات عربية وأجنبية •

ومن اهم اثاره القلمية المطبوعة :
١ـ كتابه (تاريخ اليونان) طبع لاول مرة في دمشق سنة ١٩٦٩م ويعد هذا من اهم الكتب التي تحدثت عن تاريخ اليونان وهو مجموعة محاضرات كان قد القاها على طلابه في قسم التاريخ كلية الاداب ـ بجامعة دمشق ويعد هذا الكتاب مرجعا غنيا ومهما للدارسين والباحثين في التاريخ اليوناني فكان منه عطاء كبير وكتاب بديع فيه عناء طويل ورجوع الى ماطبع من كتب العرب والى ما يزال دفينا في دور الكتب حتى اليوم •
٢ ـ نظرية ابن خلدون في التاريخ والاجتماع " اطروحة باللغة الالمانية لنيل شهادة الدكتوراه ـ سنة ١٩٣٢م
ومؤلفه " فلسفة ابن خلدون " ذكر فيه ان ابن خلدون اراد ان يربط علم التاريخ بعلم الاجتماع فحدد موضوع هذا العلم ، وطريقه بحثه ، وبين ان الحوادث التاريخية والاجتماعية خاضعة لمبدأ السببية ، ثم تصدى بعد ذلك لبحث

ـ فلسفة ابن خلدون في التاريخ والاجتماع والتطور ، فأشار الى العوامل المؤثرة في التاريخ والى اسس الحياة الاجتماعية فذكر منها الميل الغريزي الى الاجتماع والميل الى التقليد ، وختم بحثه بالكلام على المنظمات الاجتماعية كالاسرة

والقبيلة والدولة وغيرها .
٣- مختارات ابن خلدون (مشاركة)
٤ - كتاب " علم الاخلاق " طبع في دمشق سنة ١٩٤٢
٥ - طرائق البحث العلمي (مشاركة)
٦ - كتاب المنقذ من الضلال - للغزالي (مشاركة)
٧ - كتاب حي ابن يقظان لابن طفيل (مشاركة)
٨ - اديب عربي واديب سوفييتي : عمر فاخوري ، ومكسيم غوركي دمشق ١٩٤٦
٩ - الرأي العام (الفريد سوني) دمشق ١٩٦٢.
١٠- شارك في تأليف سلسلة من الكتب المدرسية والا سيما التاريخ القديم
١١- ترجم بتكليف من اليونسكو ، رسالة عن كتب التاريخ المدرسية والتفاهم الدولي ومن مؤلفه" عبر التاريخ " نختار مايلي :
يقول في مطلعه :
" من السهل جدا ان [illegible]م التاريخ، فقد لاحظ الناس منذ القديم ، ان الاخبار التي يرويها المؤرخون لا يمكن الوثوق بصحتها : يختلط فيها الصدق بالكذب ويعتريها التشويه والتحريف والتزوير ، ووصف بعضهم كتب التاريخ بأنها ليست سوى سجل لجرائم البشر وحماقاتهم وللمصائب التي جرتها عليهم مطامعهم ومنازعاتهم .
قيل للإمام البخاري : " ان بعض الناس ينقمون عليك اشتغالك بالتاريخ يقولون : " فيه اغتياب الناس" فقال البخاري : " انما روينا ذلك ولم نقله من عند انفسنا ".
وكان البخاري زائد التوقي ،بليغ التحري اكثر ما يقول عند ذكر رواة الحديث : هذا سكتوا عنه وذاك فيه نظر او اتركوه ، وقل ان يقول : كذاب اووضاع وانما يقول : رماه فلان بالكذب .
وكتب المؤرخ المشهور ابن الاثير يقول : "رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة والدراية ويظن نفسه بنفسه التبحر في العلم والرواية يحتقر التواريخ ويزدريها، ويعرض عنها ويلغيها ، ظنا منه ان غاية فائدتها انما القصص والاخبار ، ونهاية معرفتها الاحاديث والاسمار وهو بعد ان يعدد فوائد علم التاريخ ، الذي يكسب الانسان تجربة ومعرفة ، ويزيده ادراكا وعقلا يقول :
" ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ، قال الله تعالى " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " كما قال : " ولقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب " ثم يضيف ابن الاثير قائلا : " ومن ظن ان الله اراد بذكر الحكايات الاسمار فقد تمسك بآراء اهل الزيغ الذين قالوا : " اساطير الاولين ، اكتتبا فهي تحكي عليه بكرة واصيلا بل ان (شمس الدين السخاوي) ، ٨١٣ - ٩٠٢ هـ " من علماء القرن الخامس عشر الميلادي قد اضطر الى تأليف خاص في هذا الموضوع عنوانه " الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ وما زال بعض الباحثين يدعون ان التاريخ ليس علما بالمرة لانه لا يكشف عن حقائق وقوانين عامة ولا يصدر احكاما يقينية ،برهانية بل يقتصر على سرد وقائع فردية وحوادث جزئية ، محددة يشك غالبا في صحة الروايات المتناقلة عنها وتساهل آخرون فقالوا : انه لايمكن اعتبار التاريخ علما الا من حيث طرائق بحثه فقط ، اما من ناحية الموضوع والنتائج فهو اقرب الى الفنون الادبية وان كان لا يبلغ

مستواها في الابداع والتأثير .
ويتساءل كثيرون : ما الفائدة من الاشتغال بالتاريخ والرجوع الى الماضي في هذا العصر الذي يسيطر عليه القلق واخذت فيه الامم تتسابق نحو المستقبل
ماذا ينفعنا ان نعود الى حوادث الماضي التي انقضى عهدها ولايمكن ان تتكرر ؟ لقدتبدلت اوضاع العالم واحوال البشر ، فهل يجوز لنا ان نشغل أنفسنا بأمور وقعت في ظروف تختلف كل الاختلاف عن ظروفنا العصرية المتجددة بسرعة مدهشة ؟
كان (هنري فورد) صاحب معامل السيارات المشهورة ، قد زار في سنة (١٩٢٧) مدينة (اكسفورد) ولما دعي الى مشاهدة الاماكن الاثرية اعتذر ، ولم يرغب في زيارة سوى معمل للسيارات ، ثم صرح بهذه المناسبة ان التاريخ كله عبارة عن هراء وسخف ، ولم يستغرب الناس هذا القول ، الذي يدل على تفكير صبياني ، سطحي ، من رجل امريكي ليس لبلاده في الماضي تاريخ يذكر ، هذا وله غير ذلك عدد كبير من المقالات والمحاضرات والابحاث التي نشرت في مختلف المجلات والصحف المحلية والعربية والعالمية .
فآثاره القلمية كثيرة ، فلقد أغنى المكتبة العربية في كل البقاع من الوطن العربي بمؤلفاته الرصينة القيمة في علوم الاجتماع والتاريخ والفلسفة .
وظل عطاؤه مستمرا ، وحبه للعلم والعمل يكبر مع مرور السنين..
الى ان وافته المنية يوم الجمعة (١٩ربيع الاول ١٤٠٧هـ الموافق لـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٦).
فنعاه اهل دمشق والذين عرفوه ونعته وزارة التربية ومجمع اللغة العربية وجامعة دمشق وبكاه اهل العلم والبيان في مختلف بقاع الاراضي العربية ، وبموته انطوى علم من اعلام الجيل الماضي ، ظل خفاقا منذ اهل هذا القرن .
لقد مضى كامل المجالس والمحافل وقاعات التدريس ، سيد القرطاس والمنصة للقاء ربه.
ولا مرية في ان كامل عياد كان مدرسة بحق خرجت العالم والمفكر، فكان وحده دائرة معارف غنية وموسوعة علمية كبيرة دون بعضها ، وضاع الكثير مع الاسف .
غير ان رسالته ستبقى في عهدنا وقلوبنا نؤديها بعلم وامانة في خدمة الانسان والحقيقة .

صفات المربّي ومشاكل مهنته

د. كامل عياد

سألت الكثيرين من الشبان، طلاب دار المعلمين في دمشق وفي بغداد، عن الدوافع التي تسوقهم الى اختيار مهنة التعليم واردت ان اعرف هل فكر هؤلاء الشبان جميعهم في المواهب والصفات التي ينبغي ان تتوفر فيمن يكرس حياته لتثقيف الناشئة وهل هم عارفون بالواجبات الثقيلة المفروضة عليهم والمصاعب والاتعاب والالام، التي تنتظرهم ؟

ويجب ان اعترف، مع الاسف بان معظم هؤلاء الشبان لم يخطر على بالهم، قبل الانتساب الى دار المعلمين، محاسبة انفسهم فيما اذا كانوا يصلحون لهذه المهنة ام لا .

وهكذا كان الامر، دون شك مع اكثر الذين يمارسون اليوم وظيفة التعليم في المدارس والذين تراهم يتأففون ويتبرمون دائما من عملهم، ويعتبرونه من الاشغال الشاقة التي حكم عليهم ظلما باحتمالها، ويسعون بجميع الوسائل للتخلص منه في اول فرصة

مثل هؤلاء المربين الذين لا يشعرون بارتياح باطني لعملهم المسلكي لا يمكن ان يؤدوا واجباتهم كما ينبغي ولا تستطيع الامة ان تستفيد منهم الفائدة المطلوبة ..

اننا اذا بحثنا في العوامل التي تدفع قسما كبيرا من الشبان الى الانخراط في سلك التعليم نجد انها لا تستند الى معرفة تامة بحقيقة مهنة المربي وانها ليست نتيجة ميل طبيعي ورغبة صادقة في القيام بواجبات المهنة واحتمال تكاليفها .

فلا عجب لذلك اذا رأينا هؤلاء الشبان تخيب آمالهم منذ بادىء الامر ويأخذون في التذمر واظهار منتهى السخط على هذه المهنة التي اعتقدوا انها عمل سهل يتمتع فيه الانسان بنشوة السيطرة والامر على الطلاب ويستفيد من العطلة الصيفية الطويلة، ويقبض راتبا حسنا فاذا بها في الواقع، على العكس من ذلك، صعبة، كثيرة المتاعب، لايقوم راتبها بحاجات عيشة متوسطة و لا تكفي عطلة الاشهر الثلاثة للاستراحة من مشقاتها في السنة المنصرمة والاستعداد لاعمالها المنهكة في السنة التالية، كما ان نشوة السيطرة لا تلبث ان تتحطم عند اول اصطدام مع تلاميذ صف كثير العدد، متحد الكلمة، كبير التضامن .

حقا ، ان الذي تتوق نفسه الى السيطرة ويلذ له تمثيل دور قيصر يجب ان يفتش على مسلك آخر غير التربية والتعليم ، وكذلك من يحلم بالشهرة والمجد او يطمع في الثروة والجاه لا ينتظر منه ان يكون جاهلا بالحياة حتى يفكر في انتخاب مهنة التدريس واعتبارها طريقا الى ذلك .

وكم يخطىء الشاب ، وعلى الاخص في بلاد الشرق اليوم ، الذي يصير معلما ثم ينتظر ان يحترمه الناس ويكرمونه ويعترفون بفضله على اولادهم ويقدرون خدمته للامة حق قدرها .

ولا حاجة لاضاعة الكلام في الذين لايشعرون في انفسهم بأي دافع باطني الى وظيفة التعليم وانما يسلكونها لانهم لايستطيعون القيام بعمل من الاعمال ولايجدون طريقا آخر لتأمين المعيشة .

*

على ان هنالك عوامل اخرى ، اكثر وجاهة من التي ذكرت تدعو الشبان الى مهنة التربية والتعليم وتستحق كثيرا من العناية والبحث .

من ذلك الميل الى المسائل الفكرية والمباحث العلمية ، فان الذي ينتخب هذه المهنة حبا في الاشتغال بتاريخ الامم وفهم روحها او بدراسة اللغات والنفوذ الى الافكار الغريبة او بملاحظة نظام الطبيعة وتطور الكون او بادراك التناسق البديع والوضوح التام في الاشكال الهندسية والمعادلات الرياضية ان هذا الشخص يستطيع ان يجد شيئا من الاطمئنان واللذة في عمله ويرجى منه فوائد كثيرة وفي وظيفة التعليم ، ولكن ليس من الضروري ان يصبح مربيا بكل معنى الكلمة ولا ينتظر منه ان يستمر ارتياحه لمسلكه اذا حدث وقضت عليه الظروف ان يبقى اعواما طويلة في الصفوف الابتدائية يكرر المادة البسيطة نفسها حتى يستولي عليه الضجر والملل ويصاب فكره بالجمود والشلل . ولا بد ان تنقلب المهمة المطلوب منه اداؤها بتعليم الناشئة وتربيتها الى عذاب اليم لانه لم يتطوع لها الا رغبة منه في الاشتغال بالمسائل الفكرية العالية .

لذلك ينبغي ان تقترن الرغبة في العلم بصفة اخرى وهي الميل الى التعليم والانشراح له والتلذذ به ، وهذا الميل طبيعي في الانسان مثل حب الاستطلاع وهو ، لحسن الحظ ، شائع اكثر مما يظن لاول وهلة ، فان معظم الناس يرغبون في بيان مايعرفونه الى الاخرين بل هم يشعرون بحاجة الى ذكر معلوماتهم والتعبير عن افكارهم ويجدون لذة عظيمة في مشاهدة غيرهم ينصتون باعجاب الى اقوالهم ويتلقفون بلهفة ما يلقونه عليهم ، ولا شك في ان هذا السرور يرجع الى الشعور بالتفوق على الغير .

وكثيرون من الشبان الذين قضوا جميعا السنين الطوال وهم تلاميذ في المدرسة وسنحت لهم الفرص بمشاهدة مدرس قدير يوضح لهم المسائل الغامضة ويشرح المعلومات الصعبة فاعجبوا بمقدرته وشعروا بالرغبة في الامتثال به – ان مثل هؤلاء يميلون كثيرا الى مهنة التعليم ويعتقدون بانهم يجدون فيها لذة عظيمة .

ولكن هذا ايضا لا يكفي ليكون منهم المربي الحقيقي ،

بل انهم يحتاجون ، فوق ذلك ، الى صفة اساسية هي اهم مايمتاز به رجال التربية واعني بها : الشعور بالعطف والحب للناشئة .

لا يذهبن الظن بالقارئ الى ان هذه الصفة تتجلى في اظهار اللين والتساهل تجاه الناشئين وفي تعويدهم على التسامح والدلال ، بل ان العطف الصحيح والحب الحقيقي يتطلبان الشدة والصرامة ايضا .

والمقصود بهذه الصفة هو ان يشعر المربي بان مهمته هي خدمة الناشئة ، او بعبارة اوضح: واجب المربي هو ان ينشيء من الاطفال الذين يعهد اليه بتربيتهم رجالا صالحين يستطيعون النجاح في معترك الحياة قد تعلموا في المدرسة كيف يلاحظون الحوادث ويفكرون فيها وكيف يؤدون واجباتهم في الحياة بما تقتضيه من ثبات ومهارة وما تفرضه من اخلاص واستقامة وما تحتاجه من اقدام وشجاعة .

يجب ان تكون غاية المربي تكوين رجال يقدرون على خوض غمار الحياة والتغلب على جميع مشاكلها ومصاعبها .

مثل هذه الغاية لا يمكن الوصول اليها دون حب وعطف، فانه لا يستطيع ان يفهم نفسية الناشئين ويقوم اخلاقهم الا من يشعر نحوهم بالحب والعطف ، وهذا الفهم ضروري للمربي الذي يجب عليه ان يحتمل راضيا ما يشاهده في تلاميذه من نقص وفساد وخبث وان لا يفقد الصبر اذا لم تثمر جهوده بالسرعة التي يرغب فيها .

وليست مهمة المربي ، ان يكون موظفا في المدرسة ، جامدا ، ميت العاطفة ، يقوم بعمله بانتظام ودقة كالالة المتحركة ، بل ينبغي ان يكون مرشدا للناشئة يفيض قلبه رأفة وحنوا عليها وصديقا لها تغمره روح الشباب .

*

هل من حاجة في تذكير الشبان الذين يقدمون على مهنة التعليم بالمواقف الحرجة التي يقع فيها المدرس ؟ ان كل واحد منهم قد اختبر ، وهو تلميذ ، التأثير السيء الذي يتركه المدرس الثقيل ، الممل ، المتردد الجاهل في تلاميذه ويعلم كيف انهم يقابلونه بكثير من البرودة ، والاستخفاف بل والنقمة والتمرد عليه اذا كان كلامه غامضا او اذا لم يحسن المحافظة على النظام بحزمه او اذا ارتابوا في عدل احكامه .

على ان كثيرين من الشبان لا يلاحظون بانهم هم ايضا ربما يصبحون ، بعد الانتهاء من المدرسة والدخول في سلك التعليم ، مثل هذا المدرس الذي كانوا ينتقدونه ويهزأون به فلا يريدون الاعتراف بجهلهم وسخافتهم وضعف ارادتهم وظلمهم وعدم فهمهم لنفسية الناشئين بل تراهم يعتقدون الكمال في انفسهم ويؤكدون لك ، اذا ما قابلهم تلاميذهم بما يقابلون به كلمدرس من هذا النوع ان السبب في ذلك انما يرجع الى فساد تربية هؤلاء التلاميذ " الشياطين " وكسلهم ولا يتأخر بعضهم عن القيام بمقارنة بين الماضي والحاضر ، بين العهد الجميل الذي كان فيه تلميذا وهذا الزمن الفاسد الذي حكم عليه فيه ان يكون مدرسا .

ولكن حتى المدرس المتعلم

النشيط الجذاب ، القوي الارادة ، العادل والمطلع على نفسية الناشئين لا بد ان يلاقي كثيرا من المصاعب والامور المزعجة التي ربما تثبط الهمة والتي يجب ان يتقبلها بصدر رحب .

من ذلك عدم تقدير الناس لجهوده واحتقارهم لشأنه واستصغارهم لشخصه سواء في ذلك بقية الموظفين في مصالح الدولة او عامة الشعب بما فيهم اولياء التلاميذ ، فان اكثر الناس ما زالوا يعتبرون المدرس ، مهما كانت درجته ، " كمعلم صبيان " لا يتعدى نفوذه جدران غرفة الدرس ، ولا عبرة لما نسمعه من التصريحات المتكررة في الصحف وبلسان رجال الدولة من ان مستقبل الامة متوقف على جهود الشبان وان المدرسين هم الذين يخلقون من هؤلاء الشبان رجالا عاملين وقادة مصلحين يخدمون الشعب ، ولكن الاعتراف لرجال التربية والتعليم بهذه المهمة الجليلة لم يبدل شيئا من اهمال الرأي العام لشأنهم واحتقاره لمسلكهم . انما يجب الملاحظه بان حالة المدرسين في العراق افضل بكثير ، من هذه الناحية ، مما هي عليه في سورية بل وفي غيرها من مختلف البلدان .

ثم هناك صعوبة كبيرة في السير بالتعليم وتنظيم الدروس بصورة ترضي جميع التلاميذ وتتناسب مع ذكائهم واجتهادهم فان طلاب صف واحد يتراوح عددهم بين (٣٠ – ٤٠) يختلفون اختلافا عظيما في طباعهم وعاداتهم ويتفاوتون كثيرا في مواهبهم وملكاتهم : بينهم الاغبياء الكسالى والمتوسطين والمبرزين النابغين . فيختار المدرس في تعيين المستوى الذي يجب الاحتفاظ به ، وهو اذا لاحظ مستوى المتوسطين ، كما يفعل اكثر المدرسين ، فانه لا يأمن ضجر النابغين ومللهم وقلة استفادتهم من جهة وتقصير الاغبياء وتأخرهم من جهة ثانية . وهكذا يضطر اخيرا الى مراعاة الضعفاء في الدرجة الاولى مع اضافة فوائد للمتوسطين وغيرها للنابغين من حين الى اخر . ولا يعرف صعوبة مثل هذه الخطة وما تتطلبه من توقد الذهن وسرعة الخاطر ومن الجلد والتأني الا من جربها .

ولعل من احرج المواقف في حياة المدرس الحالات التي يرى فيها لزوما لمعاقبة احد تلاميذه بل يضطر فيها اضطرارا لفرض عقوبة شديدة عليه . فان الجميع سواء في ذلك رؤساؤه انفسهم او الطلاب او اولياؤهم ، ينتقدونه حينئذ وينسبون اليه القساوة وعدم فهم نفسية الناشئة بل ويتهمونه بالظلم .

انه ليس من السهل ان يستمع المدرس وهو صابر ، الى تقريع اولياء الطلاب الذين يعتقدون ان ولدهم من الملائكة . مهما كان شرس الطباع ،وقحا ، غبيا ، كسولا ويؤلمهم ان ينال اقل عقاب فنراهم يرفعون الشكوى على المدرس ويجادلونه ويسألونه : الم تكن تلميذا ايضا ، ألم تخطىء في حداثتك ؟

ان الذين يتولاهم الغضب ويستولي عليهم اليأس في مثل هذه المواقف لا يصلحون لمهنة التربية والتعليم . والمربي الحقيقي هو الذي يساعده مزاجه على ان ينظر الى الحياة من الناحية المبهجة ويبقى ، مهما اصابه من المكاره ، متفائلا .

*

التفاؤل من اهم الصفات اللازمة للمدرس ، ولا شك في ان قليلا من التفاؤل يكفي المدرس ، ليجعله يغض النظر على كثير من الشوائب التي ذكرنا امثلة لها.

يستطيع المدرس المتفائل، حينئذ ان يجد كثيرا من النواحي الجميلة في مهنته وان يشعر بالغبطة والسرور عند القيام بواجباتها .

ولنبدأ بالسرور الذي يملأ قلب المدرس حينما يرى تلاميذه يعترفون له بالجميل ويشكرون فضله عليهم ، ولا فرق في ذلك بين التلاميذ الصغار الذين تتلألأ عيونهم فرحا ناطقة بآيات الشكر اذا احسن المعلم معاملتهم وعرف كيف يجعل درسه شيقا ، جذابا يسترعي انتباههم واهتمامهم ثم بين الطلاب الكبار الذين يتظاهرون بالوقار والرزانة واستقلال الرأي ولكنهم ، رغم ذلك، لا يستطيعون اخفاء حبهم وتعلقهم بالمدرس الذي يستحق الاحترام والتقدير وهم اذا انتقدوا شدته في ايام المدرسة فلا يلبثون ، ان يلهجوا بمدحه بعد انتهائهم منها

ثم اليس من اكبر دواعي الافتخار والابتهاج للمدرس ان يرى تلاميذه يبدأون الحياة المدرسة ككائنات صغيرة ، ضعيفة ، عاجزة ، يجهدون انفسهم لضرب ثلاثة في ثلاثة ، وتهجي كتابة اسمهم فاذا بهم بعد عدة سنوات ، لا يشعر بها الانسان كيف انقضت ، وقد اصبحوا شبانا ، بل رجالات في مقتبل العمر يخوضون في المباحث العلمية ويبدون اراءهم في مسائل الحياة ويفكرون في التطورات السياسية ومشكلات الفلسفة واسرار الدين ؟

عند مثل هذه المقارنة نستطيع ان نحكم على جلال الخدمة التي قام بها المدرسون وان نقدر الجهود الفكرية والمواهب العقلية والمادة العلمية التي يحتاجون اليها لمؤالفة الناشئة وتثقيفها في ادوار تطورها المختلفة ، السريعة التعاقب ،

فانه ليس من السهل ، ان تعلم تلاميذ هذا الصف تركيب الجملة وتبين لهم احزاءها من مبتدأ وخبر وفاعل ومفعول ثم ان تنتقل الى صف اخر وتشرح لتلاميذه اسلوب الجاحظ والفرق بينه وبين ابن المقفع وتحلل قصيدة للبحتري وتكشف عن جمال صنعتها وتبحث في اصل ابن الرومي ونشأته واثر ذلك في شعره .

او في درس التاريخ ، فانه بينما يجب عليك افي الصفوف الابتدائية ان تسرد للتلاميذ بعض القصص عن حياة رجال التاريخ وتصور لهم الحروب وتذكر الفتوحات اذا بك في الصفوف العالية تحتاج الى البحث معهم في العلاقات الاقتصادية والسياسية والفكرية في مجرى التاريخ والى معالجة مسائل فلسفة التاريخ واسرار تطور الامم .

ثم في دروس الطبيعة ، انك تعجب كيف ان هذا الطفل .

الذي كان قبل سنوات يكاد لايميز بين اجزاء النبات المختلفة ، قد اصبح الان شابا بحاثة يتكلم عن الذرات وتركيبها وتحطيمها وعن نظرية التطور واسرار الحياة.

ان تلقين هذه المعارف ، درسا بعد درس ، لعدد كبير من الطلاب وعرضها عليهم بصورة واضحة جلية ، يدركها الجميع والاجابة

على كل الاسئلة التي تخطر على بالهم وتكرار كثير من المسائل في قوالب واساليب متنوعة لا تدعو الى الملل مع تنمية قوة التفكير لدى هؤلاء الطلاب وتقويم طباعهم وتهذيب اخلاقهم - كل ذلك يحتاج الى فكر جوال وعلم واسع وقدرة كبيرة على مؤالفة الظروف المختلفة

وهذا ما يدعونا الى اعتبار مهنة التربية والتعليم كفن من الفنون لا يختلف عن عمل النحات مثلا ، بل يمتاز عليه لان النحت في الصخر اسهل بكثير من النحت في كائن حي ، من دم ولحم ، دقيق الاحساس سريع التأثر ، دائم التطور

لا شك في ان عملنا هذا لا يبرز الى العيان دفعة واحدة ، تاما بجميع حلقاته بل انه يتوزع على عدد كبير من الطلاب ولا يؤتى ثماره الا بعد سنين طويلة ولذلك لا ينتبه اليه الرأي العام ، ولا يقدره الناس حق قدره .

ولكن الا يكفينا الشعور ، بل اليقين باننا بعملنا هذا التدريجي ، المستمر ، الصامت ، المتواضع نخدم الثقافة ونؤثر بصورة مباشرة في تطور الشعب وتقدمه ؟

الا نجد في شرف مهنتنا ونبل اهدافها وعظمة اثرها من راحة الضمير والسلوى ما ينسينا كل اتعابنا ويعزينا عن اهمال الناس لشأننا وعدم تقديرهم لقيمة عملنا ؟ ..

ابن الجوزي وكتابه ذم الهوى

بقلم : شتيفان ليدر
ترجمة : كامل عياد

من براعة الاستهلال ، ان المستشرق الالماني بدأ دراسته بترجمة فصل طويل من رحلة (ابن جبير) قبل ان يذكر شيئا عن كتاب (ذم الهوى) ومؤلفه (ابن الجوزي) ، كان (ابن جبير) قد هاجر هاربا من بلده (غرناطة) التي أرغمه ملكها على احتساء الخمرة في مجلسه ، فتوجه الى مكة للحج ثم تابع رحلته حتى وصل الى (بغداد) في شهر صفر سنة (٥٨٠ هـ / ايار ١١٨٤م)

يذكر (ابن جبير) انه حضر اجتماعا عقده الواعظ (ابن الجوزي) في الساحة امام قصر الخليفة حيث كان مسموحا له وحده بالخطابة والموعظة كل يوم خميس وحيث كان يمكن للخليفة واهل بيته الاستماع اليه من مناظير (شرفات) القصر

وقد وصف (ابن جبير) تزاحم الجمهور مبكرا على احتلال أمكنة قريبة من المنبر فكانوا يدفعون المال لذلك ثم ينتظرون طويلا وصول الخطيب الواعظ في حين كان يجلس القراء في صفوفه على مقاعدهم لترتيل القرآن حسب ترتيب مرسوم ، وعندما ساد الخشوع على السامعين وظهرت الرهبة عليهم حتى صار بعضهم يسكب الدموع ، صعد (ابن الجوزي) المنبر فنزع الطيلسان عن رأسه وبدأ بمدح الخليفة ووالدته والدعاء لهما ثم اندفع في خطابه ، وموعظته مستشهدا بآيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية وادبيات من شعر الزهاد .

وقد ابدع (ابن جبير) في وصف تأثير الخطاب في جمهور الحاضرين الذين اجهشوا البكاء وأخذوا يصرخون بذنوبهم وطلبا للتوبة ، ثم أضاف (ابن جبير) قائلا :

" لم اكن اعتقد ان واعظا على وجه الارض منح مثل هذه القدرة في آثارة المشاعر والسيطرة على العواطف والتلاعب بها .

*

من الواضح ان الباحث الالماني (ليدر) ،مثل غيره من المستشرقين في السنوات الاخيرة ، انما قصد بدراسته عن (ابن الجوزي) الاشارة الى اهمية الحركات الدينية في بلاد الشرق ، وعلاقتها بالحوادث السياسية

الحاضرة . لذلك انتقل الى استعراض سيرة هذا الواعظ المشهور وموقفه من عصره . ولد (ابن الجوزي) في بغداد سنة (٥١١ هـ - ١١١٧م) ومات ابوه وهو طفل ولم تلتفت اوالدته اليه ، فلما ترعرع حملته عمته الى خاله (ابي الفضل بن ناصر) الذي كان معروفا بتعليمه القرآن والحديث فأشرف على تنشئته وأرشده الى كثير من العلماء المشهورين .

وانصرف (ابن الجوزي)كليا الى طلب العلم واتجه بالاخص الى الوعظ ، وبرهن على مهارته منذ شبابه وقد نشر عدة مجموعات من المواعظ ، كذلك شارك في مختلف فروع العلم من تفسير وحديث وفقه ولغة واشتهر كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والامم) الذي اصبح مصدرا لاكثر المؤرخين من بعده . كما ألف في موضوعات متنوعة مثل (أخبار الاذكياء)و (أخبار الحمقى و المغفلين) واخبار الظراف والمتماجنين) و(احكام النساء) و (فضائل القدس) .. و(مناقب بغداد) و (نقد العلم والعلماء) و (الطب الروحاني) و (تدريس ابليس) و(صيد الخاطر) و بلغ عدد كتبه المطبوعة اكثر من الثلاثين وله كتب كثيرة ما تزال مخطوطة يذكر هو نـ[illegible]ـها تزيد على (١٣٠) .

عاش (ابن الـ[illegible]) في عصر مضطرب .. وقد سادت [illegible]وضى في (بغداد) حيث كان الخلفاء العباسيون لا يملكون شيئا من السلطة بعد استئثار سلاطين السلجوقيين بالحكم . على ان سطوة السلاجقة اخذت في منتصف السادس الهجري تضعف وتنهار بسبب الخلافات والتنازع بين افراد الاسرة المالكة فاندلعت الحرب ، بين السلطان (مسعود) حفيد السلطان (ملكشاه) وبين عمه السلطان (سنجر)

وكان امراء الجند السلاجقة المنقسمون بعضهم ضد الاخر . والمتنافسون على الحكم يضطهدون جماهير الشعب وينهبون اموال الناس ويوفدون الى مقر الخلافة الانصار والدعاة للخطابة والوعظ واثارة الفتن وبلبلة الافكار ، فقام (ابن الجوزي) يهاجم هؤلاء العملاء ويتهم الفقهاء المعارضين بالجهل والنفاق والسفسطة وينتقد بشدة شذوذ المتصوفة ، ويستنكر خروجهم عن حدود الشرع وخصص كتابه (تدليس ابليس) لفضح اساليبهم في الشعوذة ، وقد اكتسب (ابن الجوزي) الكثيرين من الاعداء بسبب تهجمه على الناس ..

كان (ابن الجوزي) يتعصب للمذهب الحنبلي الذي يتمسك بمبادىء اهل السنة ويتقيدباحكام القرآن و الاحاديث الصحيحة ويعارض اقاويل علماء الكلام المتضاربة وبدع المتصوفة المتحذلقين وكان عنيفا في مهاجمة المخالفين حتى نقم عليه بعض شيوخ الحنابلة أنفسهم واتهموه بالميل الى التأويل في كلامه وبالاضطراب والتناقض في كتبه التي كان ينشرها بسرعة دون مراجعة كافية .

*

ركز المستشرق (ليدر) ، اهتمامه على فترتين من حياة (ابن الجوزي) بلغ فيهما الذروة من الشهرة العلمية والمكانة السياسية :

١- كان (ابن الجوزي) صديقا للوزير (يحيى بن هبيرة) منذ

كانا رفيقين في دراسة الحديث على العالم (ابي الحسن الزاعوني وقد اظهر (ابن هبيرة) مهارة فائقة عندما ثار امراء الجنود السلاجقة وهددوا بمهاجمة بغداد في سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨م) فرفض التفاوض معهم ووقف الى جانب السلطان مسعود الذي وافق مقابل ذلك على تكوين جيش خاص بالخليفة (المقتدي)

وقد اتفق (ابن الجوزي)، مع صديقه الوزير (ابن هبيرة)، على دعوة جمهور الشعب الى الالتفاف حول الخليفة والسعي للتحرر من حكم السلجوقيين الغرباء فقدكانت اكثرية السكان في (بغداد) اذ اذك يتبعون المذهب الحنبلي ويعتنقون عقيدة أهل السنة ويكرهون جنود السلاجقة الذين ينهبون اموال الناس ..

ولتقوية سلطة الخليفة وتوطيدمكانته انتهز (ابن هبيرة) موت السلطان (مسعود)، فقام على رأس جيش الخليفة ، واستولى على مدينتي (الحلة) و (واسط) .

٢ ـ اما الفترة الثانية التي برز فيها (ابن الجوزي) فانها تبدأ مع خلافة (المستضيء) في سنة (٥٦٦ هـ / ١١٧٠م) وقد سبقت الاشارة الى ان هذا الخليفة كان يستمع دوما الى خطب (ابن الجوزي) ومواعظه من شرفة القصر فكان طبيعيا ان يسترشد بآراء ابن الجوزي في منهاجه السياسي ، وفي الواقع اتبع (المستضيء) الخطة التي سار عليها (ابن هبيرة) في عهد (المقتضي) فاخذ يساند اهل السنة ويقدم مساعدات كبيرة الى مدارسهم وبالاخص مدارس الحنابلة ، وقامت (بنفشة بنت عبد الله الرومي) زوجة الخليفة بتمليك مدرسة خاصة للحنابلة بادارة (ابن الجوزي) وامرت بوضع لوحة نقش عليها اسم (ابن الجوزي) بوصفه (امام الحنابلة) .

كان (المستضيء) يوآزر رجال العلم من خطباء وواعظين لاستمالة الرأي العام وكسب تأييد جماهير الشعب في مقاومة قائد الحرس التركي (قايماز) ، الذي كان يسيطر على قصر الخليفة .

هكذا عندما تدفق جمع غفير من سكان (بغداد) لسماع خطبة (ابن الجوزي) انتهز الخليفة الفرصة فصعد الى سطح القصر واخذ يحرض ويدعو باعلى صوت الى التخلص من استبداد (قايماز) فاستجاب جمهور الشعب الى هذا النداء واندفع بحماسة الى مهاجمة قصر القائد التركي الذي هرب من بغداد مع اتباعه .

وبفضل دعاية (ابن الجوزي) ازدادت مكانة (المستضيء)وذاعت شهرته في العالم الاسلامي مما دفع السلطان (صلاح الدين الايوبي الذي قضىعلى حكم الفاطميين في مصر الى ان يأمر في سنة ١١٧١بأن تقرأ الخطبة في المساجد باسم هذا الخليفة العباسي .

بعد موت المستضيء ظل (ابن الجوزي) يخطب في قصر الخليفة مدة من الزمن ، الا ان نفوذه اخذ يتضاءل في عهد الناصر . بل انه مع تقلب الظروف وتعاقب مختلف الوزراء تعرض عدة مرات الى النفي والسجن . ولكن صفح عنه في الاخير واستقبل بمظاهر الحفاوة والتكريم عند عودته الى (بغداد) في سنة (٥٩٥) حيث مات بعد سنتين فخرج جميع السكان في جنازته ودفن الى جانب الامام (احمد بن حنبل) .

ان كتاب (ذم الهوى)للواعظ (ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي) عبارة عن مجموعة من الاحاديث النبوية واقوال الصالحين واخبارهم ، وجملة من الاراء والمبادىء الاخلاقية وشروح العلماء للعشق مع بعض التعليقات من حين الى آخر ثم أضيف اليها عدد كبير من القصص وروايات الحب والعشق .

وقد تبين للمستشرق (ليدر) بعد التقصي ان مقدار العشر فقط ضمن محتويات الكتاب هو من الكلام الذي سجله (ابن الجوزي) ذاته في حين ان التسعة اعشار الباقية قد جمعها نقلا عن الاخرين ، ويلاحظ انه قد أهمل بين مصارده بعض المؤلفات الهامة التي تناولت موضوع الحب والعشق بالشرح والتحليل مثل كتاب (الزهرة) لابي بكر بن داود او كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الاندلسي .

على العكس من ذلك اتجه اهتمامه خاصة الى كتاب (اعتلال القلوب) ، للخرائطي وكتاب (مصارع العشاق) للسراج ، اللذين يتميزان بالتحذير من العشق ومساوئه ، وكانا يتناقلان في مجالس المحدثين .

وكان (ابن الجوزي) يسير على طريقة علماء الحديث في الاسناد ومتابعة سلسلة الرواة ، وقد أحصى الباحث (ليدر) في كتاب (ذم الهوى) حوالي (١٠٥٠) حديثا وخبرا نقلها (ابن الجوزي) ، باسانيدها الكاملة وامكن اثبات صحة اكثرها بعد تصنيفها وفحصها في القسم الثاني من الدراسة (٧٠ صفحة) .

واهمال (ابن الجوزي) — الاستفادة بعض الكتب القيمة المشهورة .. ن (كتاب الاغاني) يرجع سببه الى ان رواياتها ليست منقولة بطريقة علم الحديث .

ترجمة الدكتور

كامل عياد

بقلمه

ولدت سنة ١٩٠١ في طرابلس الغرب (ليبيا) . ولما اضطر والدي الشيخ علي عياد الى الهجرة من البلاد اثناء الغزو الطلياني سنة ١٩١١ استصحبني معه الى تركيا فتابعت دراستي في استنانبول وفي مدينة بورصة بالاناضول ، ثم انتقلت سنة ١٩١٤ الى المدرسة الثانوية في حلب .

وفي سنة ١٩٢١ سافرت الى المانيا وبدأت الدراسة في جامعة برلين ، كما اشتغلت بالصحافة واشتركت في تأسيس مجلة بالعربية اسمها (الحمامة) وجريدة بالالمانية تحت اسم (صدى الاسلام)

وقد حصلت على شهادة الماجستير في الاداب ، والدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٣٠، وعدت الى دمشق ، وآخذت اعمل في الصحافة الى ان عينت سنة ١٩٣٢ مدرسا للتاريخ في المدرسة التجهيزية (الثانوية) بدمشق . وفي سنة ١٩٣٦ سافرت الى بغداد ، حيث قمت بتدريس تاريخ العرب والاسلام في دار المعلمين العالية لمدة ثلاث سنوات . وفي سنة ١٩٣٩ رجعت الى التدريس في المدرسة التجهيزية ودار المعلمين الابتدائية بدمشق، وفي سنة ١٩٤٤ عينت عضوا في لجنة التربية والتعليم (ادارة البحوث ولما اسست كلية الاداب ، في جامعة دمشق عينت استاذا مساعدا للتاريخ اليوناني ، ثم انتقلت في سنة ١٩٥٠ الى كلية التربية استاذا لتاريخ التربية . وفي سنة ١٩٥٢ انتدبت للعمل في الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية . وقد انتخبت في سنة ١٩٥٨ عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية) .

نشرت في برلين سنة ١٩٣٠ م اطروحتي باللغة الالمانية عن " نظرية ابن خلدون في التاريخ والاجتماع " واشتركت في تأسيس مجلتي (الثقافة) و(المعلمين والمعلمات) بدمشق ، ونشرت فيهما كثيرا من المقالات . كما كنت سكرتيرا لمجلة (كلية التربية) .

كذلك اشتركت مع بعض الزملاء في تأليف سلسلة من الكتب المدرسية التاريخية ولا سيما التاريخ القديم . ونشرت بالاشتراك مع الزميل الدكتور جميل صليبا ، (مختارات من ابن خلدون)وكتابي (حي بن يقظان) لابن طفيل ، و (المنقذ من الضلال) للغزالي، كما اشتركت معه في تأليف كتاب (المنطق وطرائق البحث العلمي).

وكنت نشرت في سنة ١٩٤٢ ، كتاب (علم الاخلاق) وفي سنة ١٩٥٨ ترجمت بتكليف من منظمة اليونسكو رسالة عن (كتب التاريخ المدرسية والتفاهم الدولي) وقد نشرت في عدد خاص من مجلة المعلم العربي بدمشق .

وهناك مقالات ومحاضرات كثيرة انتشرت فى مختلف المجلات .

(احيل الدكتور عياد على التقاعد بجامعة دمشق في ١٩٦٠/١٢/٣١.

عمل استاذا للتاريخ في الجامعة الاردنية بين عامي ١٩٦٣و ١٩٦٦.)

لابد من توفير حياة اجتماعية سليمة

بقلم : د.كامل عياد

من كتاب علمتني الحياة
ـ الدكتور احمد امين ـ

ولد سنة ١٩٠١ بمدينة طرابلس الغرب .. وبعد اتمام الدراسة الابتدائية والثانوية في استنابول وبورسا بالاناضول، وحلب والقدس، مارس الصحافة مدة سنة، ثم التحق سنة ١٩٢١ بجامعة برلين، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ولما عاد الى دمشق سنة ١٩٣٠ اشتغل مدة بالصحافة ثم عمل بالتدريس في المدرسة الثانوية بدمشق، ثم دار المعلمين العالية ببغداد، ثم عين استاذ مساعدا في كلية الاداب، وقد انتدب من الجامعة السورية كخبير في الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

لا اعتقد ان الحوادث المختلفة التي تعاقبت علي في شتى البلدان، قد جعلتني أكثر معرفة، بحقيقة الحياة او اكثر قدرة على حل مشاكلها من جمهور الناس الذين لا يفتأون ـ وراء التجارب المتوالية ـ يرتكبون الاخطاء ذاتها في سلوكهم وفي علاقاتهم بأبناء جنسهم .

ولكن لا ريب عندي ايضا في انني ـ لولا بعض الظروف والواقع ـ لما اتجهت في حياتي وتفكيري الوجهة الحاضرة .

لقد اضطررت ـ وانا في العاشرة من العمر ـ الى الهجرة من وطني " ليبيا " بسبب غارة الطليان فانتقلت من بيئة نصف بدوية الى مدينة استنبول المتحضرة نسبيا، وهناك، كان علي ان أبذل جهدا زائدا لمسايرة البيئة الجديدة، ومما رآه رفاقي الجدد في المدرسة وبفضل هذا الجهد نلت الدرجة الاولى في الفصل عند امتحان آخر السنة .

ومن جهة آخرى فان التفكير المتواصل في نكبة بلادي، قد صرفني عن ميولي الفطرية نحو الرياضيات ودفعني الى دراسة التاريخ، والعلوم الاجتماعية الى الاشتغال بالامور السياسية .

ومن المؤكد ان ذلك انتهى الى اهمال مصالحي الشخصية المادية، مثل الكثيرين غيري من أبناء امتي الذين أدركوا أنه لا قيمة بحياتهم الفردية دون نجاح القومية العامة .

ولعل اهم حادث كان له اعمق تأثير في توجيه فكري هو ما تعلمته بعد اشتغالي بالتدريس، فقد كنت ـ ككل مدرس مخلص لعمله ـ أشعر بمنتهى السرور والاعتزاز، عندما اشاهد طلابي يتقدمون في

المعرفة والبحث والتفكير، وكنت في الصميم أعلق أكثر الامال على مستقبل النابهين بين هؤلاء الطلاب الذين لم يكن بخاطري ادنى شك في أنهم سيصبحون علماء او مخترعين او مصلحين وأنهم سيعملون على نهضة الامة العربية .

الا انه لم تمض بضع سنوات حتى كشفت لي الحياة عن الواقع المؤلم ، ذلك اني التقيت ببعض الطلاب المتفوقين بعد مدة من تخرجهم ، واذا بهم قد صاروا معلمين في قرى نائية لأنهم كانوا فقراء لا يستطيعون اتمام الدراسة الجامعية ، وكان لا بد لهم من العمل لاعاشة أنفسهم وأسراتهم ، وقد هالني ما كان يبدو عليهم من الخمول والبؤس ، ولاحظت ان أحدهم على الاخص كان هزيلا ، شاحب اللون خلافا لما عهدته عليه في المدرسة ، فلما سألته عن السبب أجاب كيف لا انتهي الى هذه الحالة وأنا أعيش في قرية يحيط بها المستنقعات وتفتك " الملاريا " بسكانها ، وليس من طبيب اوصيدلية فيها او بالقرب منها ؟

وقد تبين لي من الحديث مع هؤلاء الطلاب القدماء انهم جميعا لم يطالعوا اي كتاب أو مجلة منذ ان تخرجوا من دار المعلمين، فظننت لأول وهلة ان ذلك ناشيء عن ظروفهم الخاصة ، ولكنني عندما أخذت أبحث الموضوع على نطاق اوسع وأسأل عددا كبيرا من المتعلمين كالمحامين والاطباء والمهندسين والموظفين وجدت ان اكثرهم قد انقطعت كل صلة لهم بالعلم .

عندئذ أدرك ان هذه الظاهرة لا يمكن تعليلها بكل الافراد او نزعهم المادية ، بل لا بد من ارجاعها الى تأثير البيئة الاجتماعية ، ومنذ ذلك الوقت آمنت بأن مجرد العناية بتعليم الافراد وتهذيب أخلاقهم لا تكفي وحدها ، لنهضة المجتمع ، وتقدمه وانما ينبغي في الوقت نفسه وقبل كل شيء ـ تغيير النظم والمؤسسات واصلاح الاوضاع العامة ، فان الافراد لا تنكشف مواهبهم ولا يستطيعون الانتاج والابداع الا اذا بدأوا بتهيئة الجو الصالح لحياة اجتماعية منسجمة ، متطورة وزاخرة

محمد كامل عياد